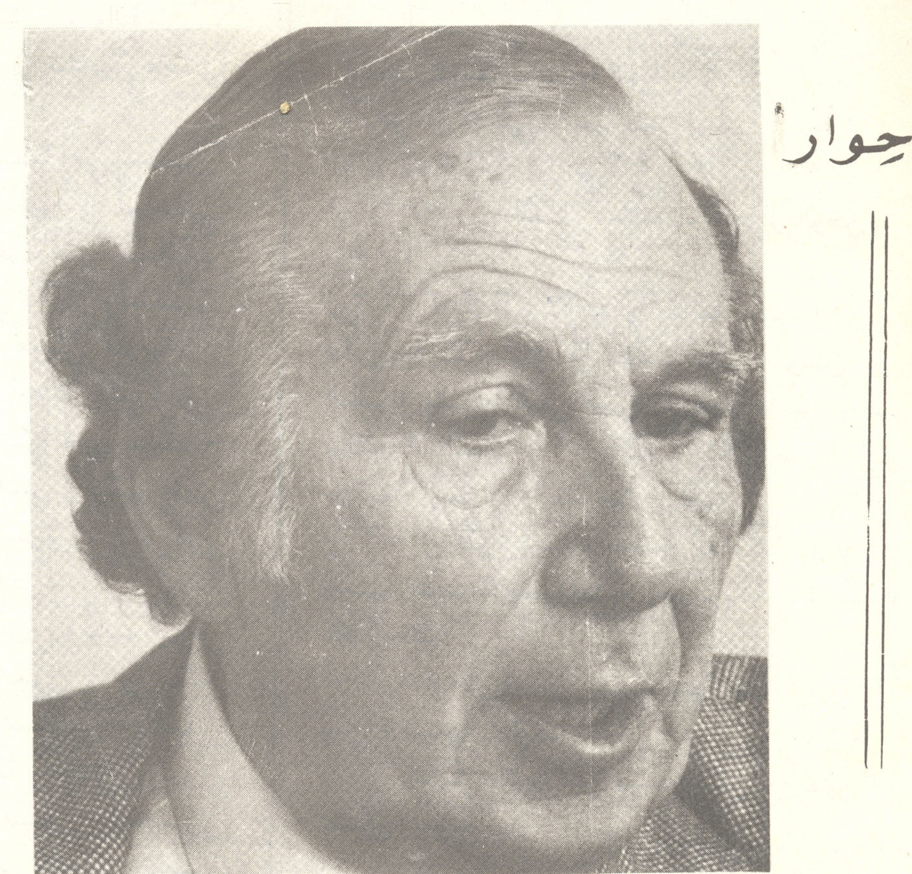
"الثقافة" تلتقي الشاعر الكبير الأستاذ :

"نزار قباني"

في حوار خاص عن المرأة

حوار

وداد قباني



شاعر من صميم قلب دمشق ، ما ان يمسك القلم حتى تستطيل أصابعه فيصبح لها شكل السنابل ، والورود ، والاغصان ..

يأتيه شيطان الشعر ، فيحرق له البخور ويهرق له ماء الورد.. وتسبقه اليه الصبايا ، ندية كالفجر ، تحاكيه ويحاكيها ، فتأتيه القصائد زنابق مائية ..

في قصائده تتحول كل امرأة الى حورية بحرية ، لا جنية ولا انسية ، تتسامق إليه

كاشجار غابات افريقيا ..

هل عرفتم ضيفنا لهذا الشهر .. شاعر توضأ من ماء عشقه لدمشق وياسمينها ، غنت قصائده الملايين من المحيط الى الخليج ..

الشاعر الذي غنى للمرأة فأترفها وأغرقها في بحور من العطر والبخور ، وغنى للوطن فأدمت حروفه عينيه وأحرقت آلامه قلبه ..

إنه الشاعر الكبير الغني عن التعريف : نزار قباني فأهلا وسهلا ..

وداد

س١ : الأستاذ الشاعر نزار قباني عرفت شاعرا كبيرا غنى للمرأة أولا وأخيرا ٠٠ ثم غنى للوطن وآلامه ، وعرفت دبلوماسيا ، وعرفت بحبك لدمشق وأهلها ، فهل لك أن تقدم نفسك للقارىء بطريقتك الخاصة ؟

ج ٢ : أنا محصول دمشقي مئة بالمئة ٠٠ كما الحنطة ، والخوخ ، والمشمش ، والدراق ، والجانرك ، واللوز الأخضر ٠٠ في بساتين دمشق ٠٠

اللغة التي أكتب بها ايضا هي محصول دمشقي ٠٠ فلو فتحت ثقبا صغيرا في أبجديتي لانفجرت نوافير الماء ، وطلعت من مسامات حروفي رائحة النرجس والريحان والفل والياسمين والزعتر والطرخون الذي أعتبره هويتي القومية٠

في أسفاري تمر بي أوهام كثيرة ٠٠ فأتصور مرة أنني سفرجلة ٠٠ ومرة أنني صفصافة ومرة أنني مئذنة ٠٠ ومرة أنني رغيف خبر تنوري ٠٠ومرة أنني سطل عرقسوس ٠٠ أو كوم صبارة مثلجة في ليالي الصيف ٠٠

كل هذه الشؤون الصغيرة ، كانت المواد الأساسية التي صنعت منها شعري ، إن باقة طرخون تأتيني الى لندن بيد مسافر ٠٠ تشعل النار في ثيابي وفي ذاكرتي بلحظة واحدة ٠٠

ماء دمشق جعل شعري مائيا٠٠وعصافيرها علمتني معنى الانعتاق ومعنى الحرية٠٠ وبيتنا الدمشقي أعطاني صورة مصغرة عن الجنة ٠

الشعر بالنسبة لي قدر مرسوم كالهلال فوق جبيني ٠٠ يناديني فأمتثل ٠٠ ويأمرني فأطيع ٠٠

لم يكن الشعر عندي في يوم من الأيام وظيفة رسمية اؤديها كالخدمة العسكرية ٠٠ ولا كان عندي شهادة دكتوراه أعلقها في برواز ٠٠

كان زلزالا أكبر مني ، وحريقا لا يزال مشتعلا في ثيابي منذ خمسين عاما حتى الآن ٠

عن المرأة كتبت ٠٠ وعن الوطن كتبت ٠٠ واعتبرتهما موضوعا واحدا ٠٠ فكانت المرأة تأخذ حينا شكل الوطن ٠٠ وكان الوطن يتخفى في بعض الاحيان بملابس امرأة ٠٠

" كلما غنيت باسم امرأة ٠٠
أسقطوا جنسيتي عني ، وقالوا :
- كيف لا تكتب شعرا للوطن ؟
- وهل المرأة شيء آخر ضد الوطن ؟
آه لو يدرك من يقرؤني
أن ما أكتبه في الحب ، مكتوب لتحرير الوطن"٠

س ٢ : المرأة العربية تبدو ضائعة ، تطمح إلى أن تكون شيئا ، والى أن تقدم شيئا ، ولكن بين الطموح والواقع تبقى فجوة ، وهذه الفجوة واسعة بالنسبة للمرأة ٠ ٠ فكيف تقيم جسرا بين طرفيها يربط بين طموحها وواقعها ؟

ج ٢ : إن المرأة ليست ضائعة أبدا كما تقولين ، ولكنها سعيدة بضياعها ، ومستريحة (لما قسمه الله ، عليها) ٠٠

انها تريد من يمضغ عنها لقمة الحرية ٠٠ ومن (يبلعها) أيضا ٠٠

تريد مائدة من سبعة ألوان ٠٠ دون أن تدخل المطبخ ٠٠

وتريد أن تقود انقلابا ضد ذكور القبيلة٠٠ دون أن تطلق رصاصة واحدة ٠٠

وليس في قواميس الحرية ، حرية (بالبلاش) ٠٠

ولا في تاريخ الثورات، ثورة بلا شهداء ٠٠

لم يقاتل شاعر من أجل المرأة مثلي ، ولم يشتغل أحد محاميا بالمجان خلال نصف قرن من أجل استصدار حكم ببراءتها كما فعلت أنا ٠

ولكنني أعترف اليوم ، ان المرأة لم تكن

متحمسة لربح قضيتها ضد الرجل · فخلال الجلسات كانت تحاول أن تهرب لزوجها من وراء القضبان ·· كيس شوكولاته ·· أو رسالة غرامية· وكانت تريد أن يأخذوه الى السجن ، على شرط أن ينام في البيت ·· وكانت تريد أن يحكموا عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ·· ثم تبيع أساورها لإطلاق سراحه ··

وباختصار ·· ان دعاوى المرأة ضد الرجل هي دعاوى (أونطة) ·· وليس صحيحا أن المرأة تريد أن تقتل شهريار ·· فهي تقف بالطابور على بابه ·· حتى يأذن لها بالدخول الى فراشه ·· وينجب منها عشرة أطفال لايتذكر أسماءهم ·· ثم يرسل لها ورقة الطلاق ، أو يذبحها ··

هذه هي قناعاتي ، ولو أرادت المرأة أن تقلب الطاولة فوق رأس الرجل ، وتخلعه من السلطة ، وتعيده الى بيت أمه ·· لكانت ربحت المعركة منذ زمن طويل ··

ولكن المرأة العربية ،كبعض الدول العربية تتلذذ بهزائمها ··

س ٣ : باعتقادك هل يجب أن تكون المرأة مساوية للرجل في كل الأمور بلا استثناء أم لك آراء معينة حول الموضوع ؟

ج ٣ : المساواة في كل شيء غير ممكنة كيميائيا وبيولوجيا وعضليا ·· وفي نظري يمكن اللعب بكل شيء إلا بكيمياء الأنوثة ··

ولا يمكنني أن أتصور امرأة تقطع نهديها بالسكين ·· حتى لا تتهم بجريمة الأنوثة ·· أو تضرب عن إنجاب الأطفال حتى لا تتهم بأمومتها ··

مثل هذه الطموحات الذكورية قاتلة للمرأة وللرجل أيضا ·· وإذا صارت المرأة رجلا فهذا يعني نهاية العالم ، ونهاية الشعر ، ونهاية الرسم ، ونهاية النحت ، ونهاية المسرح ، ونهاية جميع الفنون التشكيلية ·

المساواة المطلوبة هي المساواة في الحقوق والامتيازات ، والكرامة الانسانية ·· لا بد من انهاء حالة الاقطاع الاقتصادي ، والسياسي ، والقضائي ، والاداري ، والثقافي التي أعطاها التاريخ للرجل ، وإقامة كونفدرالية بين الجنسين يتمتع بها كل " كانتون " بشيء من السيادة في ظل الحكومة الاتحادية ·

إنني لا أريد لخبطة خريطة الأنوثة ·· ولكنني أريد إعادة ترسيم الحدود بين جمهورية الرجل ، وجمهورية المرأة ·· بحيث تتوقف عمليات الغزو ·· والسلب ·· والنهب ·· والاستيلاء على عقل المرأة وجسدها ·· بقوة السلاح ·

س ٤ : يقول أحد الفلاسفة : إن تحرر أي مجتمع يقاس بمدى تحرر المرأة فيه ، وتوسيع حريات النساء هو المبدأ العام لكل تقدم اجتماعي ، فكلما نالت المرأة المزيد من حقوقها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، قطع المجتمع شوطا في طريق تحرره وتقدمه · · ما رأيك بهذه المقولة ، وكيف ينظر الاستاذ الشاعر نزار قباني الى هذه المقولة ؟

ج ٤ : هذه المقولة هي مقولتي ·· فأنا منذ خمسين عاما أحمل المرأة على كتفي ، وأقاتل بالشعر والنثر كي أنقذها من أسنان شيخ القبيلة··

نحن مجتمع معاق ، ومشوه ، ومصاب بشلل الأطفال ، لأن المرأة فيه ممنوعة من النطق، وممنوعة من الحركة ، وممنوعة من السفر ، وممنوعة من الاختيار ، وممنوعة من قراءة ديوان شعر ، وممنوعة من استلام مكتوب غرام ·· وممنوعة - إذا تزوجت - من اختيار أسماء

أولادها ..

إن النساء العربيات ، يعشن في (هولوكوست) نازي .. له باب دخول .. وليس له باب خروج .. وقد سبق لي مرة أن كتبت : (لا يمكننا الدخول في نادي الحضارة ، ما لم تتحول المرأة عندنا من شريحة لحم .. إلى معرض أزهار ..)

س ٥ : قال شوبنهور : المرأة لا تصلح إلا لحفظ النسل ، وتدوير الساعة ، وغسل الصحون ، وقال نيتشه : لقد خلق الرجل للحرب والقتال ، وأما المرأة فإن ليس لها من شيء سوى الحب والطفل، وتبعا لذلك فإن سعادة الرجل هي : (أنا أريد) ، وسعادة المرأة هي : (هو يريد)

وقال جان جاك روسو : إن الرجل فطر بالطبيعة للحياة الخارجية بينما المرأة مكانها داخل الأسرة ، والمفروض في تربيتها أن تتعهدها بالرعاية لكي تكون السند المعنوي للرجل (وخادمته) .. دون أن يكون لها إرادة خاصة بها ..

ان هذه الاقوال ، وكثير على شاكلتها تقوم على اساس التمييز بين الرجل والمرأة . ما رأيك بهذه الأقوال ، وإلى أي حد تنطبق على واقع المرأة العربية ؟ وهل هناك جناح أمل يمكن للمرأة ان تغير به مسار الواقع ؟

ج ٥ : الرجال يكتبون ما يريدون .. ويسخرون من النساء كما يريدون .. وينتقصون من مواهبهن كما يريدون .. وعندنا مثل شامي يقول : (الذي في يده القلم لا يكتب نفسه بين الاشقياء ..) .

وبما أن الرجل كان دائما منذ خلقه الله، سلطويا ، إقطاعيا ، أنانيا ، فليس من المعقول أن يتنازل عن سلطته لأحد .. وليس من مصلحته أن يقول كلمة طيبة بحق أحد ..

لذلك أرجو من المرأة أن لا تهتم بمثل هذه البيانات العدوانية .. وأن تلجأ الى الحرب المضادة .. فالرجل بيته أيضا من زجاج .. ويمكن لكاتباتنا أن يحطمن غروره ، وينشرن فضائحه على حبال الغسيل .

س ٦ : ينظم قانون الأحوال الشخصية مجموعة من الانظمة والقوانين التي تحدد وضع المرأة في الأسرة وعلاقتها بالرجل مثل ، تقييد حريتها في طلب الطلاق ، وحرية الرجل في الزواج بأكثر من واحدة ، هل تعتقد أن هذه القوانين بحاجة الى تعديل ؟

س ٦ : هذه القوانين بحاجة الى (نسف) لا الى تعديل ، انها ليست أكثر من سوق تشترى فيها المرأة بالمزاد العلني ، وتباع بالمزاد العلني ..

ذات يوم ، فكرت أن أكتب مسرحية شعرية تدور وقائعها في جزيرة تسمح قوانينها للمرأة بأن تتزوج أربعة رجال ، وتحدد لكل رجل ليلة تستقبله في غرفتها ، وفي اليوم التالي تطرده لتستقبل زوجها الثاني .. ثم الثالث .. ثم الرابع .. وقد كان بذهني أن تنتهي المسرحية في مستشفى الأمراض العقلية حيث يتظاهر الرجال الأربعة ضد (بيت الطاعة) الذي تملك المرأة مفاتيحه .. وضد القوانين النسائية الجائرة التي تسمح للمرأة أن تقتني الرجال كما تقتني كراسي غرفة الطعام .

كنت أريد أن اصف مشاعر الإحباط والإذلال عند الرجل عندما تهان رجولته ، وتقص شواربه ، ويضطر الى الانتظار في الطابور أربعة ايام حتى يسمح له بدخول فراش الزوجية !!

مثل هذه العقوبة الموجعة ، كانت ضرورية.. حتى يعرف الرجل حدود (تعدديته) .. وحتى يقلع عن مضاجعة النساء بالجملة كما يفعل ديك القرية .

س ٧ : تقول إحدى النساء : إن دونية المرأة منقوشة في اللغة ، فالطاقة والابداع والخلق مرادفة للرجولة ، والنبل فضيلة مذكرة في المقام الأول ، وحين تكون إمرأة موهوبة جدا يكال لها المديح والثناء بتشبيهها بالرجل ..

هل توافق على هذا الكلام ؟ وماذا تعني لك كلمة " امرأة " بالمعنى المطلق ؟

ج ٧ : أشك أن تكون قائلة هذا الكلام التعس امرأة ..

اشك بأنوثتها أولا .. وبعقلها ثانيا .. وبثقافتها ثالثا ..

إنها تشطب بجرة قلم تاريخ الجنس الآخر كله .. وتعطيه صفرا في كل شيء .. وتمنع عنه نعمة الخلق والإبداع .

وإذا كانت اللغة مذكرة ، كما تقول هذه السيدة الفاضلة ، فمن أين جاءت الشاعرة الاغريقية سافو .. والفرنسيات سيمون دو بوفوار وفرانسوز ساغان ، وكوليت ، والانكليزيات جين اوستن ، وايديث سيتويل ، والروسيات آنا أخماتوفا ، وبيلا أحمادولينا ..؟

إنني لا أؤمن في الابداع بالتفرقة الجنسية، فمثلما تعطي المرأة طفلا جميلا فإنها تعطي قصيدة جميلة .. أو ترسم لوحة جميلة .. أو ترقص رقصة جميلة .. (أليست أعظم راقصات البالية في العالم من النساء ؟؟)

وإذا كان عدد المبدعين أكثر من عدد المبدعات نسبيا ، فالسبب يعود الى الحصار الثقافي والعلمي والمعرفي الطويل الذي تعرضت له المرأة .. فلم يترك لها سوى هامش ضيق جدا تتحرك فيه .

أما المرأة كما أراها، فهي أرض حبلى بألوف الاحتمالات ، ولكنها بحاجة الى "مزارع" يتعامل معها بحضارة وبرقي وإنسانية .

وبكل أسف أقول إن الرجل العربي ، بعقله الاقطاعي المعروف ، وفكره الاستبدادي والاحتكاري ، لم يعط المرأة - الأرض - ما تحتاج اليه من ماء .. وغذاء .. وحنان .. فيبست أعشابها ، وماتت أزهارها من شدة الملوحة .

مجلة الثقافة تشكر الشاعر الكبير " نزار قباني " على هذه الاضاءات الفكرية .

حوار: وداد قباني

من شعر: نزار قباني

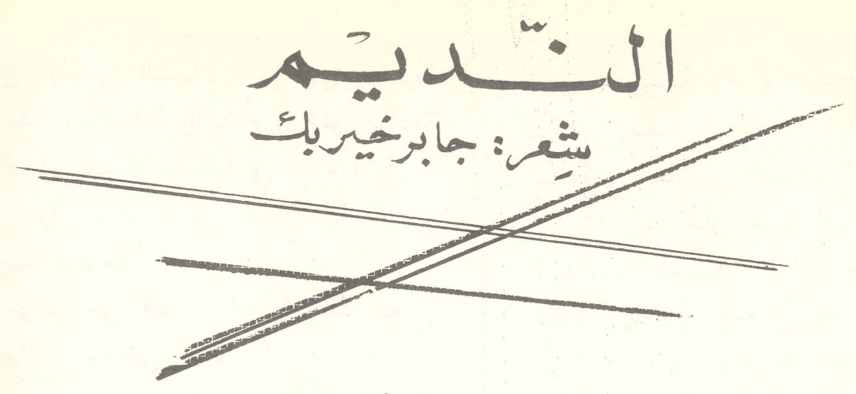
المسا

المسا شلال فيروز ثري
وبعينيك ألوف الصور
وبعينيك مرايا اشتعلت
وبحار ولّدت من أبحر
انفتاحات على صدر على
جزر ليست ببال الجزر
أنا عيناك .. أنا كنتهما
قبل بدء البدء قبل الأعصر

أنا بعثرت نجومي فيهما
زمرا تسألني عن زمر
لو معي حبك لاجتحت الذرى
ولحركت ضمير الحجر
ولجّمعت الدنا كل الدنا
في عرى هذا القميص الأحمر
إنني أعبد عينيك فلا
تنبئي الليل بهذا الخبر

النديم

شعر: جابر خير بك



نديمي وما أحلى النديم وما أسنى
وليلا طوى عنا العواذل والحزنا

نديمي ظبي ساحر الطرف فاتن
به من صفات الحسن ما يسكر الفنا

حفرت له رسما جميلا بمقلتي
فصار الى جفني وباصرتي أدنى

وقرت به العينان بعد صدوده
وبادلته حبا وبادلني الأمنا

تكرم فاهتز الحنين بهاتفي
وداعب أذني صوت فاتنة رنّا

سهرنا وكان الراح حلو حديثها
سكرت به حتى انتشيت بما غنا

حديث " ولا أشهى " ولطف عشقته
كما تعشق الخمر المعتقة الدنا

وهمس من الأعماق ينقل وجدنا
عن الحب والأشواق تطحننا طحنا

وذاب فؤادي بعد كل تنهد
يمزق أحنائي ويقتلني طعنا

شكت وجدها والهمس كالمسك عاطر
تصب به من سحر مبسمها لحنا

فبادلتها الحب الوفي كأنني
جميل يناجي من صبابته بثنى
لحا الله ما يلقى المحب من الهوى
إذا ما استوى في القلب ذوّبه شجنا
فبعض الهوى يأتيك كالسم قاتلا
وبعض الهوى نعمى ترش لك المنّا
ترد حياة المتعبين جميلةً
ولو كان هم العمر يثقلها وهنا

* * *

حبيبة لولا الحب يغني قلوبنا
بنعماه ما كانت لأحلامنا حصنا
فما قيمة الأيام في العمر إن خلت
من الحب .. تغدو كل فتنتها سجنا
ويصبح عمر المرء مثل قصيدة
من الشعر لا وزنا تطيب ولا معنى

* * *

حبيبة يا بنت الخمائل والشذى
ويا نفحة تفنى العطور ولا تفنى
نداك شهي كالربيع أريجه
فسبحان من أعطى الحلاوة والحسنا
أحن إلى رياك والبعد قاتلي
فكيف يلام المستهام إذا حنّا
وحبك قد فاض الحنين وهذه
شهودي: دموعي والفؤاد الذي جنّا
تلاحقني الأشواق للثغر ظامىء
وللشفة اللمياء والمقلة الوسنى

ومر هزيع الليل والطرف ساهر

يداعب منها النهد والثغر والجفنا

وتنقلني الأحلام حيث خيامها

أطوف أشم العطر من ذلك المغنى

فيا ليتني كنت القريب لنبعها

فلا شفتي ظمأى ولا أدمعي مثنى

ويا لك من ليل تقاصر طوله

وبتنا على خوف نسيء بك الظنا

ألست لأسرار المحبين ساترا

فإن خنت سرا أيها الليل ماخنّا

تظل على العهد الأمين قلوبنا

تصون هوى الأحباب لو بعدوا عنّا

* * *

حبيبة يا من بين أجفان مقلتي

تنام وأجفاني بغفوتها تهنا

سأهدي قوافي الشعر عطرا وزينة

لفارسة الأحلام من حسنها تجنى

فقبلك كان العمر يأسا وحسرة

وكم هام خلف الفاتنات وكم أنّا

وكنت شريدا تائه القلب متعبا

كعصفور روض ضيع الدوح والغصنا

وجدتك بعد الاين فارتاح خافقي

كما الطير لاقى بعد غربته الوكنا

تعالي ومدي الراح أهدي قصائدي

إليك . فإني أتقن النظم والوزنا

وديـري علي الكـأس صرفـا ونـادمـي

فتاك فقد أضنى الهوى منه ما أضنى

غـدا تظلم الدنيـا وتقفـر روضـة

من الزهر لا عطرا تجود ولا يمنا

تعالي فأيـام الربيـع قصيـرة

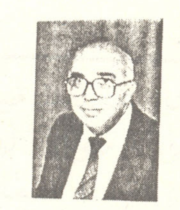
تفـارق مغنـانـا خمـائلـه الغنّـا

نعـد عهد من غابوا نـديـا معطرا

أكون به قيسا وأنت به لبنى

جابر خير بك





... ومرة أخرى يقرع العصامي أحمد الخوص
باب الإبداع ليقدم لأبناء أمته بعد قصة الإعراب
في أجزائها الأربعة (قصة الإملاء).
هذا الكتاب الذي نحن أحوج ما نكون إليه اليوم
ليكون زاداً لطلابنا وأساتذتنا والحق يقال:
إن في هذا الكتاب من الجهد والعناء ما يشفع لمؤلفه
أن يكون في طليعة المؤلفين في جيلنا المعاصر ممن
[illegible]
... هذه الأمة ورسالة لغتها بعد أن وضع يده
على مواطن الضعف في أكثر المؤلفات التي تطرحها
المطابع كل يوم.
جزاه الله عن أمتنا خيراً
مدحت عكاش

البعد العاطفي عند الشاعر علي دمر

بقلم : محمد منذر لطفي

جميل أن يتحدث الانسان عن الحب عند شاعر عاشق مولع بالجمال ، لأن مثل هذا الحديث او البحث يحمل معه البهجة والمتعة للسامعين ، لذلك فقد وزعته على المحطات الفرعية التالية :

١- مدخل الى البحث .

٢- نظرة الشاعر علي دمر الى المرأة .. وكيف تغزل بها .. ؟

٣- ملاحظات أدبية حول شعر علي دمر الغزلي

٤- خاتمة .

١- مدخل الى البحث :

يجمع علماء الأدب والنفس والمجتمع ووظائف الاعضاء على أن عاطفة الحب التي تجمع بين الرجل والمرأة .. هي من أبرز وأسمى وأرق العواطف الانسانية على الاطلاق ، ومن المسلم به أن الحدث العاطفي من أهم الأحداث في حياة الناس بعامة ، والشعراء منهم بخاصة ، وهو يستطيع في كثير من الاحيان أن يرفعنا ، ويرتفع بنا الى الانفعال ، فالانتشاء .. فالتغني ، وهنا يأتي دور الشاعر الحق ، وقديما قال " أفلاطون" كلمته الخالدة : " لكي تصبح شاعرا يجب أن يملأ الحب قلبك " .

والواقع فإن الشاعر كصدفة المحار .. لا يفرز عصارته الثمينة (لؤلؤة الشعر) إلا إذا حركه لدرجة كافية عامل داخلي ، فكرة موحية ذات شحنة عاطفية مؤثرة .. فاعلة ومنفعلة على حد سواء ، ولما كانت المرأة أجمل وأشهى ، وأعطر وأندى غرسة في حديقة الكون ، لذلك فلا غرابة إذا رأينا الشعراء من أكثر الناس تجاوبا معها ، وتقديرا لمكانتها ، وتأثرا بجمالها ، وتذوقا لعواطفها ، ولا غرابة أيضا إذا وقفوا منها موقفا متميزا .. وأنشدوا في محرابها أجمل الاشعار ..

٢- نظرة الشاعر علي دمر الى المرأة .. وكيف تغزل بها ؟

لدى قراءتي المتأنية لقصائد الشاعر البوحية والعاطفية التي ضمتها دواوينه ، وبخاصة (المجهولة) و (غيبوبة الحب) و (إشراق الغروب) تبين لي أن هناك نظرة واحدة نظر شاعرنا من خلالها الى المرأة معتبرا إياها روحا وجسدا بآن واحد .. مشاركا في ذلك معظم الشعراء الذين نظروا اليها على أنها ملاك وجمال عواطف روحية وجسدية على حد سواء ، وقد كان مصيبا في تلك النظرة ، فالمرأة هي المرأة ، جمال وجلال .. ولا يجب الفصل بين هاتين الصفتين ، أو التركيز على واحدة منهما على حساب إهمال الاخرى عند الحديث عن المرأة ، لأن تلك هي المعادلة الصحيحة للحياة ، وذلك هو المعادل الموضوعي والمقياس الحق للإنسان ، وتندرج تحت هذا الموقف مجمل قصائد الشاعر "علي دمر " البوحية فالشاعر لم يوغل في التعبير عن عاطفة الحب بمفردات جسدية واضحة ، ولم

يتفنن في وصف جمالات المرأة والنظر الى مفاتنها بواقعية عارمة ، كما أنه لم يقف على الرصيف الآخر ولا كان من القديسيين او العذريين .

والواقع يشير الى أن الشاعر " علي دمر" نظر الى المرأة على أنها شريكة رحلة وحياة ، ورفيقة درب عبر صحراء الحياة ، ومتاهات الكون من هذا المنطلق كانت نظرته واقعية اجتماعية موشاة بالعواطف الحارة الصادقة ، ومن هذا المنطلق أيضا راح يبحث عنها بشكل رومانسي حالم في ديوانه (المجهولة) الذي جسد رحلة البحث من خلال اثنتين وعشرين قصيدة ، هي الى التشاؤم أقرب منها الى التفاؤل ، يقول في القصيدة التي تحمل رقم (١) مايلي :

كم توسلت للصباح المندى
بنسيم الاشجار والأزهار
سائلا عنك كل عطر
منشدا فيك أعذب الأشعار

.

أين ألقاك يا ضياء حياتي
أنا في ظلمة الخضم المطير
إيه .. مجهولة الاقامة عندي
لو عرفت المكان عاش سروري
سوف ابني الحياة حبا على حب
وأنشي من الحنين قصوري

.

بينما يقول في القصيدة التي تحمل رقم (١٣) الأبيات التالية بعدما أخذ يذوب حنانا للقائها :

أنا في الكرى ألقاك لي متبسما
يا طيفها .. تصغي لشعر عتابي
فأفيق مذعورا .. فالقى وحشتي
لو أشتكي للصخر حن لما بي
يا ورد خديها سقيتك من دمي
أترى أشمك بعد طول غياب ؟

أخشى عليك من النسيم إذا سرى
وأخاف من ضوء النجوم الخابي
كم مرة غنيت فيك بحرقة
وكسرت من بعد الغناء ربابي

.

الرومانسية الخيالية واضحة جدا في هذه القصيدة ، كما في سائر قصائد هذه المجموعة ، حيث يتابع الشاعر فيها رحلة البحث عن فارسة أحلامه المجهولة من خلال صور ورؤى ابتدعتها المخيلة الخصبة للشاعر الولهان .

٢- اما في مجموعته الشعرية (غيبوبة الحب) فقد وجد الشاعر من خلالها فارسة أحلامه المجهولة بعد طول بحث وعناء ، وقد بدت الفنية الشعرية فيها أكمل وأنضج ، والتفاؤل أكبر وأوفر ، يقول في قصيدة الافتتاح (شاعرة ساحرة) المهداة إليها الآتي :

يا فتونا في خاطر الأشعار
ظل دهرا في نشوة الأسرار
في ضمير الغيوب .. في حلم الشا
عر .. في روح عالم الأنوار
ثم شاء الإله تجسيد ذاك الحسن
في شكل فتنة وإسار
فتخطرت بيننا جسدا أشهى
وسحرا يعشي سنا الأبصار
أنت فينا قصيدة الله في الارض
وعزف الملائك الأطهار
السماوات تنتشي من سماع الشعر
من كوكب على الأرض ساري
جمع الشعر والجمال وليسا
غير خمر الاكوان والأدهار

.

ولكن هذه التجربة العاطفية التي وجد الشاعر من خلالها (مجهولته) لا تدوم طويلا .. وإنما تمر بمراحل ثلاث :

المرحلة الاولى :

مرحلة اليقين : وفيها يعتقد جازما أنه وجد فارسة احلامه حقا ، فينطلق وراء تجربته لينظم لنا أحلى قصائده الغزلية في تلك الحبيبة الشاعرة الساحرة مثل (اللقاء الاول - اللقاء الثاني - ورقات - زيارة - أحلى الثواني ٠٠الخ) يقول في قصيدة (اللقاء الاول) :

لأول مرة ألقاك ٠٠ لكن
هواك ٠٠ كأنه في الروح جيل
كأني تائه من قبل عني
فأوجدني بك الطرف الكحيل
فيا حرمان روحي ٠٠ يا فراغي
ويا كبتي ٠٠ أما آن الرحيل

•

ويقول في قصيدة (اللقاء الثاني):

عيناك -ياحلوة العينين- قد نظرت
فبدلت كل أيامي وأكواني
فجرت في ينابيعي وقد نضبت
وهيجت كل صباباتي وأشجاني
وعاد شعري غريدا ، وقد هجعت
ألحانه منذ أزمان وأزمان

•

بينما يقول في قصيدة (أحلى الثواني) الآتي :

فتشت عنك دهورا
من أقدم الازمان
من قبل قبل وجودي
في عالم الأحزان
" مجهولتي " قد كفاني
ضياع عمري ٠٠ كفاني
اليوم تاب زماني
عن جفوتي وامتحاني

المرحلة الثانية ٠٠ مرحلة الشك :

وتبدأ مع نهايات هذه القصيدة ، ذلك أنه وبعد ان يحدثنا عن جمال الحبيبة وشعرها وقضاء أمتع الاوقات معها بتفاؤل وانطلاق - سرعان ما تبدأ مرحلة الشك عنده دونما سابق مقدمات حتى لكأن عقدة الخوف من المستقبل أو عقددة عدم ثقته بنفسه قد خلقتا معه منذ ابصرت عيناه النور ، فإذا به - وهو وسط هذا الجمال والدلال ٠٠ ومتع الشعر والوصال يتابع القصيدة فيقول :

وجدتك اليوم ٠٠ لكن
يا هول ما يغشاني
أخشى ضياعك أخشى
طوارق الحدثان
أخشى غياب عروسي
الاحلام عن وجداني

وتتجلى هذه المرحلة - مرحلة الشك - بكل وضوح في كل من قصيدتيه (الصمت والشك) و (أوهام الغموض) يقول في الاولى مخاطبا نفسه :

أفق قبل أن تبدو الحقيقة مرة
وتعرف أن الحب من صوب مفرد
أفق يا غبي القلب ياصافي الرؤى
تظن شعاع الحب في أي فرقد

•

بينما يقول في الثانية :

يا ربما ناغمت ٠٠ لاهية
شعري ٠٠ وقلبي فيك يحترق
وتقول نفسك : شاعر وله
سحري لدى أوتاره ٠٠ ألق
ما ضر لو داعبته عابثة
آماله ٠٠ وجعلته ٠٠ يثق

فيقول في قصائد غررا

ولو أنها من روحه مزق

ألهو به .. أختار أدمعه

حبات عقد في تأتلق

وأتيه بين صواحبي طربا

وتشير لي الشرفات والطرق

ويقال : هذي نجمة ظهرت

في الشعر .. منها يسكر الأفق

والشاعر المحزون منصهر

بغرامها العاتي .. ومحترق

.

المرحلة الثالثة .. مرحلة القطيعة :

وفيها يقرر الشاعر - عن قناعة تامة - إنهاء هذه التجربة العاطفية الفاشلة وقطعها ، فيطوي جناحيه ، ويتمنى الموت ، ويتوعد قلبه الاقتلاع ، ان هو فكر ثانية بحب جديد ، وتجسد لنا قصائد (صحوة - وداع عادية) هذا المرحلة بكل وضوح ، يقول في قصيدة (صحوة) :

عذرا .. إذا لملمت أمتعتي

ورحلت عن حبي وعن أملي

فالحب .. إما كان من طرف

لا بد أن يذوي على عجل

يا ليت روحي قبل صحوتها

قد لفها بضبابها أجلي

ويقول في قصيدة (وداع) واصفا حبها وما آل اليه في هذه المرحلة :

تذوقت منه حلو ما كنت أشتهي

وغادرني مر الذي كنت أتقي

هو الأمل المرجو قد لاح واختفى

فيا حزن ذوبني ويانار أحرقي

بينما يقول في قصيدة (عادية) التي تمثل ردا عليها .. وانتقاما منها لكرامته المهدورة الآتي :

ما أنت سوى امرأة تحوي

ما كل امرأة .. تجمعه

أعطيتك أثمن ما يعطى

حبي .. إخلاصي أجمعه

لكن عطائي .. وا أسفي

أضحى بقفار موضعه

لم يلق له كفوءا .. فطوى

جنحيه .. وفاضت أدمعه

لو فكر يوما .. في حب

قلبي .. سأحاول أنزعه

أما في ديوانه (اشراق الغروب) فقد راح الشاعر يبحث من خلاله عن أنثى جديدة .. وحب جديد ، ضاربا بتهديده لقلبه عرض الحائط ، وسرعان ما يجدها ، فينطلق قائلا :

يا شروقا على غروب حياتي

فصباحي لا يعتريه ختام

أبدا صرت في الصبا

فليمر العمر حولي ولتركض الايام

ثم يسلسل قصائده البوحية الجديدة (لجديدة الحب هذه كما أسماها في قصيدته (جديدة) فيقول :

جديدة الحب .. يا صبح الربيع على

ورد جديد عليه طل أنداء

يا نبتة في رياحين .. منضرة

في روضة من رياض الشام غناء

وتتوالى هذه السلسلة من القصائد العاطفية التعويضية البوحية الحالمة ، فنقرأ (إشراق الغروب - إيقاظ الرماد - واحتي - وجدتها - الزيارة - أحلى لقاء) وتتوالى الصور الحلوة والانغام ، والمعاني الجميلة والاحلام ، يقول

في قصيدة (اشراق الغروب):

فتشت عن " مجهولتي " زمنا
فغدوت يا " مغلولتي " بيدي
يا نظرة خطفت على عجل
أحلى واشهى من رؤى الخلد
جددت في معالمي فإذا
فردوس حبي بالظلال ندي
تطفى على بحار نشوتها
فيغيب فيها حاضري وغدي
جهلت عيونك .. وهي باسمة
ماذا فعلت بشاعر .. غرد
فالعيش دون الحب محض ردى
يا حب .. ذوبني الى الابد

ولكن " جديدة الحب " هذه .. أو " المعلومة " سرعان ما تقلب له ظهر المجن وتدعه من جديد فريسة الهم والغم والأحزان بعد أن صرمت حبل الوصال ، تماما كما فعلت سابقتها الشاعرة الساحرة ، "بطلة غيبوبة الحب " به ، وسراعان ما تتوالى القصائد المأساوية الحزينة عام الفراق ، آخر الدرب - أهكذا ياحبها - لا فراق - الهزيمة - الانهيار . كأس الخيبة - أفعى - مخلفات المعركة - العدم - الوجد) حيث يصف لنا نفسه في إحداها فيقول :

صرت أضحوكة الأماني .. دعيني
فحياتي قناعة .. وانطواء
عقدتي خيبة .. وخمري قنوط
وارتياحي بلادة وارتخاء
مزقتني السهام من كل صوب
وطوتني ضراعة بلهاء
ويح شكي ما زال عقدة خوفي
فشل راجف .. وظن هباء
خيبة مرة .. ويأس بليد
ورجاء محطم .. وبلاء
لست أدري لديك أمري .. أحب

٣- ملاحظات أدبية حول شعر علي دمر الغزلي :

مما لا شك فيه أننا عندما نقف أمام النتاج الشعري للشاعر علي دمر ، فإنه ستطالعنا مباشرة ودون أي عناء سمات الشعر الحقيقي الذي يوشحه الصدق والبساطة ، والاصالة والجمال بأكثر من وشاح ، وهذا ما جنب صاحبه عثرة الضياع في زحمة غيره من الوجوه الشعرية المعاصرة ذات النزعات المتباينة والمدارس المختلفة في كثير من الاحيان ، انه يمثل خطأ بيانيا متصاعدا في مسيرة فنية متجددة ، يحاول الشاعر ان يصل من خلالها الى الافضل والاكمل ، وأن يرصد ويجسد واقعه العاطفي ، كما ويحاول ان يخرج بشعر الغزل من شتات التهويم الى الواقع العاطفي المعاش بعد ان يوشيه ، بغلالة رومانسية فرحة حينا .. وحزينة في معظم الاحيان .. مستخدما عبر رحلته الشعرية العاطفية ، الصور والموسيقى ، والفكر والالوان ، يقول في قصيدة له بعنوان (يا جارة العاصي) وهي من أجمل شعره البوحي - فيما أرى - الآتي :

الله يا جارة العاصي بذي وله
يهفو بقلب من الاشواق معمود
أهوى بواديك يامهد الهوى قمرا
ذكراه في خاطري بنت العناقيد
على الشريعة في ورد الاصيل مشى
بقد أهيف ساجي الطرف أملود
وإن تبسم في الظلماء خلت بها
برقا .. تألق في آفاقه السود
قلبي يرف له والشوق في كبدي
يا ليت يدري بأشواقي وتسهيدي
يلهو .. ويلعب في الجنات في مرح
كالطير في الدوح او كالطفل في العيد

ولكن ثمة مجموعة من الملاحظات السلبية والايجابية التي تتلخص بالاتي :

الملاحظات السلبية :

١- الاغراق أحيانا في القصص الشعري الكلاسيكي المكرور الذي يغيب فيه الشعر ليحل محله النظم ، سواء في المفردات والكلمات ، أم في التراكيب والعبارات ٠٠ أم في الصور والمعاني ٠٠ وبخاصة في بعض قصائد مجموعته الشعرية (المجهولة)٠

٢- الوقوع في السردية والمباشرة والنثرية العادية أحيانا بالرغم من شاعريته المتمكنة ، وهذه مجتمعة ، من أهم عيوب المدرسة الكلاسيكية وقد جاءت فيما أرى نتيجة لازمة للهث الشاعر ركضا وراء الاحداث اليومية العادية لتجاربه العاطفية وتتبعها ، والدخول في تفصيلاتها وجزئياتها من تصوير ورصد لكل حادثة بوحية أو اجتماعية صغيرة كانت ام كبيرة في علاقته مع من يحب ، وهذا ما جعله لا يستطيع مجاراة شعر الغزل من أبناء جيله او متقدميه قليلا ، امثال (نزار قباني - حامد حسن - محمد الحريري - كمال فوزي الشرابي) بمثل تلك القصائد ، في الوقت الذي راينا فيه رصيدا جيدا من الابداع في قصائد (القصيدة رقم (٧) و رقم (١٧) ورقم (١٨) من مجموعته المجهولة ٠٠ وقصائد (اللقاء الاول - ورقات - زيارة - صحوة - يا جارة العاصي - وغيرها) في كل من غيبوبة الحب واشراق الغروب ، والتي استطاع الشاعر من خلالها ومن خلال مثيلاتها ان يجاري شعراء الغزل الذين سبقت الاشارة اليهم ، حيث تطالعنا - وبوضوح تام - الصور الفنية المتلاحقة ، والجمل البرقية المكثفة والمتناسقة ٠٠ ذات الجرس الموسيقي المنغم ، والوقع الشعري الاخاذ ، كما في قصيدته (زيارة) على سبيل المثال حيث يقول :

بالأمس زرتك ٠ ٠ والهوى قدري
فخلوت للمرآة في مرح
وطلعت بعد هنيهة ٠٠ قمرا
وبسمت لي من نشوة الفرح
فرأيت أحلامي مجسدة
وقطفت ما أرجوه من منح

٣- الاستعمال الواضح لبعض المفردات المعجمية التي انتهى استعمالها الشعري منذ أمد بعيد ٠٠ مثل (حندس)- قحلال - الطغام - الجمام وغيرها) او الكلمات النثرية البعيدة بشكل أو بآخر ٠٠ من لغة الشعر وقاموسه ، مثل (عكس ، مقايس ، قشر ، مباشرة ، باقتضاب ، ظروف ، وغيرها) او الجمل الصحفية العادية مثل (قررت قطع علاقاتي) تدخلت امور فوق طاقتنا - مع هذا إن تغب عني يغب - واندمجنا ٠٠ إن كنت لا أقنعك ٠٠وغيرها) بالاضافة الى بعض المبالغات التراثية والقصائد البكائية التي بطل مفعولها ، ولم يعد لها أي رصيد ، كما لم تعد تصرف في سوق الشعر المعاصر (كلاسيكيه وحديثه)

ومع ذلك ٠٠ ومع هذه السلبيات مجتمعه فقد كان هناك على الرصيف الاخر عدد من الملاحظات الايجابية التي تتلخص بالاتي :

الملاحظات الايجابية :

١- حاول الشاعر في مجال المضمون ان يجد في بعض الاحيان علامات جديدة للمفردات اللغوية ٠٠ ليفجر٠٠ او قل ليطور بها ومن خلالها تركيبات جديدة واستعمالات حديثة للكلمات ، وهو ولا شك متمكن من ذلك وقادر عليه ، نتيجة موروثه الثقافي الكلاسيكي الجيد ، وانفتاحه أثناء دراسته على الشعر الرومانسي الفرنسي المترجم ، وعلى التيارات الشعرية العربية

المعتدلة الحديثة التي لا تتنكر لماضيها التراثي في الشعر ، ولا تغرق في التحرر الحديث فيه ، وهذا ما جعل قصائده من النوع السهل البسيط الاصيل الموحي المغرق في الخيال والخصب والرومانسية الفرحة حينا والحزينة في معظم الاحيان .

٢- غنى الموضوعات الغزلية التي تطرق اليها الشاعر .. والتي تتعلق بالعلاقة اليومية للمحبين ، مع اكتشاف جوانب خبيئة وزوايا مجهولة من الحياة اليومية للمرأة ، وتصيد ذلك لصالح تلك الموضوعات .. وتسليط الاضواء عليها .

النظر الى المرأة على أنها لوحة جمالية متكاملة لا يجوز تقسيم خارطتها الرائعة الى دول وعواصم ، ومرافئ وخلجان ، حتى لا تفقد شيئا من روعتها وجاذبيتها .

٣- حب الشاعر الواضح لمدينة " حماه " وعشقه لترابها وعاداتها وانسانها ومفرداتها الطبيعية الحالية التي كان لها حضور دائم في قصائده وأشعاره .

٤- مواقفه الانسانية النبيلة التي ظهرت واضحة في أكثر من قصيدة أو مقطع .. بالاضافة الى فلسفة وتكثيف موضوعات بعض القصائد في نهاياتها ببيت شعري او اثنين، يلخص تلك القصائد ويكون مفتاحا مضيئا لها ، ويحرض القارىء على تبني وجهة نظر الشاعر ، وأخيرا براءة الشاعر وطفولته وصدق عواطفه في كل ما قال او كتب لأنه من النوع الجلي الواضح الذي يحمل قلبه على لسانه بشكل دائم .

٤- خاتمة :

تلك هي رحلة في قصائد الشاعر (علي دمر) العاطفية ، ولكن ثمة سؤال يطرح نفسه بإلحاح ونحن نشرف على نهاية البحث هو : هل غمر الحب الحقيقي قلب الشاعر " علي دمر " في أشعاره تلك .. أم أنه نظر الى المرأة على أنها لعبة فنية جميلة .. فراح يجيد توظيفها لكتابة قصائده واشعاره ، تماما كما يجيد الرسام او المثّال توظيف الحسناء " الموديل او النموذج " لرسم لوحاته وأعماله ؟ ..

في رأيي ان الحب الحقيقي عرف طريقه بوضوح الى قلب الشاعر العاشق ، بدلالة وفرة الشعر العاطفي البوحي عنده ، والذي يعبر الشاعر من خلاله عن شدة انفعاله بالتجربة وعمق تأثره بالحدث .. على حساب قلة شعر الغزل الوصفي عنده ، والذي يتفنن الشاعر من خلاله في وصف جمالات المرأة ، ورصد حركاتها الانثوية وسكناتها بشكل واضح مثير وأخاذ ، ولكن تجربته العاطفية لم تكن من نوع (الحب المقاتل الجرىء) الذي يفعل وينفعل ، يتحدى ويقاتل من أجل الوصول الى الهدف الطبيعي السامي وهو الزواج ، وأنما كان من نوع (الحب القدري الاستسلامي) الذي يرضى بالنتائج ايا كان نوعها والذي لم يستطع ان يتخطى الصعوبات او ان يتجاوزها ،مع أنه اي (حب الشاعر) كان جديا ولكنه كان غير موفق ، لأنه كان وخلال جميع تجارب الشاعر العاطفية احادي الجانب ، على مايبدو باعترافه . وكم كنت أتمنى لصديقي الشاعر المرحوم علي دمر ان يحالفه الحظ ويبسم له في واحدة من تجاربه العاطفية تلك وما أكثرها .

وإذا كان لي من كلمة أخيرة فهي ان الشاعر علي دمر أوتي في مجال الغزل البوحي المرصع بالموضوعات الاجتماعية العاطفية المستقاة من طبيعة " حماة " مرآة صقيلة تنعكس عليها حتى الاطياف ، وحسا عاطفيا مرهفا صادقا ولوعا بالاخلاص والوفاء .. نظر من خلاله نظرة جمالية الى الوجود ، فرأى المرأة أجمل مافي هذا الكون من لوحات وجمالات .. فوهبها أرق ما عنده من ألحان وألوان .

في ميلاد القائد الخالد...
جمال عبد الناصر

شعر: نجم الدين الصالح

ألف أهلا ذرّت شموس
أبي خالد .. واستقبل الضياء الضياء
مولد الفكر ، والعروبة في مصر
وعيد الكنانة اللألاء
مزّق الفجر عنه ألف حجاب
وتهادت على يديه ذكاء
وأتت باسمه المناقب والبشرى
ونصر مؤزر وعطاء

* *

وأخوه الرمز الأمين ، وجيش:
لهب في امتداده ، واصطفاء
فسلوا عن سماته جبل الشيخ
وما ترمز الذرى الشمّاء
جيش مصر ، وجيش جلق ،
والفتح على جانحيهما ، والفداء
فحديث الجولان أعظم من أن
تتقراه ريشة ، أو غناء
وحديث الجولان وقف على
الفرسان : مَنْ خططوا هناك ، وشاؤوا
مد ليل التاريخ سورا ، ولكن
مزّقته أكفّنا السمراء

واضمحلت ظلال باريس حتى

لم يعد يذكر الخطوب الجلاء

* *

غير أن الجراح في الشرق أمست

فوق ما تدرك الأماني الوضاء

فجراح تفترّ فيها الأقاحي

وجراح تبكي بها الورقاء

وبعطر التراث يندمل الخطب

وتزهو بالكرمة الصهباء

* *

عاجلتنا سياسة الغرب حتى

ضاع فيها السفين والميناء

إنها (لعبة الحضارة) لايجدي

بها منطق ، ولا استقصاء

جمر تشرين وحده يسقط اللعبـ

ـة .. أو يقصف البلاءَ البلاءُ

وتحدّي الموت الزؤام بموت

ليس فيه وهن ، ولا استخزاء

في حروفي يسمو جناح الى الشمـ

ـس ، وفيها ترنّق الجوزاء

وبأوراق كل زيتونة خضراء

تمشي الضفاف ، والصحراء

من شعاع التاريخ جئنا وأذكت

من سناه (حميدة) و (سناء)

يعشقُ الموتَ (خالدُ الأكْرِ) فيه

مثلما يعشق الظلامُ الضياء

ومع (المبعدين) تـذأى المنـايـا
وتهب الـزعـازع النكبـاء
يشعل الثلج بينهم كرة النور
وتخزى على العروش الفراء
وبسفح الجليل تختبىء الأنجم
خجلى، وتصهل الدهماء
وعلى ضوء ثلج (مرج الزهور) الغض
تبدو بضدها الأشياء
أيها الماخرون في (الأطلس الرجرا
ج) ، والمقطعونه ما يشاء
إن تكونوا جننتم في هواه
(فتنحوا فأنتم الطلقاء)
في فلسطين ألف فتح جديد
كلّه : كلّ عزة ، وفداء
إنّ أطفالها تعيش بجفن المو
ت ، والخُلدُ ملكهم والبقاء
ووراء الأقدار نحن هنا في الشا
م : ليث ، وجحفل ، ومضاء
الكميّ الذي يقود سرايا
نا : شموخ ، وثورة ، وبناء
ويلاقي الحتوف منفردَ الهمّ
أأوفى لذاتُه ، أم أساؤوا
وسواء أجاء طارق أم لم
تتحرك لثأرها الزباء

* *

أوجعتهم يداك يادهر حتى
لم يعد يحمل الدواءُ الداءُ
وإذا ما تنكرت لغة الأرض
وغاضت رياضها الغناء
فلنا في ملاحم الشام ما لم
يستطع فهْمَ كُنْهِهِ الأنبياء
نحن جذر العروبة الصامد
البرُّ ، وفينا المعراج والاسراء
حافظ ، ناصر ، وجسر الغد
الممتد ، والدجلتان والأحساء
وسيول العروبة البكر لا تقوى
على حجزها ذرى أو قباء
إن تشأ كنت يا محيط ضفافا
أو تشأ كانت الضفافَ السماءُ

* *

سيد الشام ألف أهلا ، وعذرا
إن تدندن بهمها الشعراء
أنا لا أفهم السلام على الشرق
وفي جانحيه ذئب وشاء
أنا لا أفهم الرفيف على الروض
وفي الزهر حية رقطاء
لا أطيق الدنيا تطوّف بالنّعم
وأهلي بأرضهم غرباء
كل فجر إن لم توحّد بلادي
بسناه ، وكل عيد هراء
والصباح الذي ينضّر جزءا
دون جزء، فنحن منه براء

الفارس

بقلم
اسعد الحسين

لم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحا حين أنهت عملها ، لقد بكرت في الحضور وما عليها الآن إلا أن تستأذن سيدة البيت بالانصراف ، لمحها سامر تتأهب للخروج وثب نحوها مسرعا ، واستوقفها معاتبا :

- أين الحكاية ؟..

سرت كلماته في عروقها مثل لحن يفيض عذوبة ، عادت بذاكرتها الى الوراء ، راحت تستعيد ملامح ابنها وهو يهرع اليها من أجل حكاية ، يا للدهشة ، انهما متماثلان الى درجة يستحيل عليها التمييز بينهما .

كان سامر ينظر اليها بترقب عفوي يتراكض بفرح ظبي ظامىء أبصر الماء ، حتى أطفال الموسرين يحبون الحكايا ، غريب .. حقا فقد كانت تعتقد أن تعلق ولدها أحمد بالحكايات مجرد تعويض يخدر أحلام الطفولة وأمنياتها الحبيسة في وطأة الحرمان ، ويغلف مفازات الخيبة والقهر وطالما تركت عملها من أجل أن تقص عليه حكاية في كل مرة عاد اليها كئيبا محزونا وسرعان ما كان وجهه يتألق بالبشر..

كان الآخرون قد تحلقوا حولها وحاصروها ، أي قلب يجرؤ على تجاهل عيون الأطفال ؟..

- انهم يحبونك كثيرا ..

قالتها سيدة البيت مجاملة ، وهي ترمي أولادها بنظرة تأنيب مبطنة بالوعيد ، ابتسمت أم أحمد بحنان مشبع بالود .. وتراجعت أمام اللهفة التي تراءت لها على وجوه الاطفال ، ترف كالأطيار .

هتف سامر ، وهو يجذبها من ثوبها نحو الصالون :

- من أجل أحمد نريد حكاية .

شبت الحماسة في عروق الصغار ، فاندفعوا يهتفون بصوت جماعي .

- عاش أحمد .. عاش ..

ومضى في كيانها شعور مباغت بالفرح،

شعرت كأنما الأرض البور مزدانة بالسنابل ، والانهار تجتاح مواقع العطش ، لاح لها أحمد مقبلا يمتطي صهوة جواد أدهم ، وجبينه تتألق بالكبرياء ، وكأن الشمس تنبع منه ، وبدت كل الاشياء تمور برونق آخاذ ، وفي الحال قعدت وسط الاطفال وخاطبتهم قائلة :

- حسنا أيها الاعزاء ، ماذا أحكي لكم ؟

ضج الصالون بأصواتهم ، الشاطر حسن.. علي بابا .. الفارس الملثم ..

ضحكت مشيرة لهم بالاصغاء وقالت :

- كان يا كان ..

خيم الهدوء وانفرجت شفتا ربة الدار عن ابتسامة مشوبة بضجر خفي ..

.. تعالى صياح الأطفال ثانية ..

ربتت على كتف أقربهم إليها :

- قد يأتي أحمد هذا اليوم .

سأل سامر :

- هل يحضر سلاحه معه ؟

ردت بزهو تلألأ كالفجر على وجنتيها :

- أحيانا ..

- ألا يحدثك عن الحرب ؟

- دوما .

تنحنحت سيدة البيت ، نطقت ملامحها بغيظ مكبوت يهدد بالانفجار ، ترى هل يعني ذلك أنها تكره جلوسي مع أطفالها ؟

سألت أم أحمد نفسها ، وهي تنهض واقفة ، بينما توجه سامر نحو أمه قائلا :

- ماما أريد رؤية أحمد ..

انخلعت عيناها من الغيظ ، وكادت أن تصرخ في وجهه لكنها آثرت تصنع الاتزان :

- ستراه عندما تنتهي الحرب .

التفت الصغير الى أم أحمد :

- هل أخبرك متى تنتهي الحرب ؟

حارت بما تجيب .. وعندما اصطدمت نظراتها بعيني سيدة البيت سارعت قائلة :

- قريبا ..

- الحرب مستمرة .. هكذا قالوا لنا في المدرسة.

هزت سيدة البيت رأسها :

- دعيهم لي ، لقد ضايقوك كثيرا ، شدها سامر من يدها :

- سلي أحمد .. أصحيح أن الشهداء يظلون أحياء ..

(أومأت له برأسها ، وتحركت نحو الباب ، حانت منها التفاتة الى دبابة بين لعب الأطفال .. ها هو ذا أحمد صار يقود دبابة حقيقية ..

مم غضبت سيدة البيت ؟ من قال لها أن الأطفال قد ضايقوها ؟.. إنها مفتونة بهم ، تعشق براءتهم ، وتراها عالما مسكونا بالخضرة ، واسعا كالبحر دون نهايات ، لعلها استاءت من جلوسهم اليها ، بل هي قد بلغت ذروة الامتعاض والغضب عندما طلب سامر رؤية أحمد .. صحيح ان الاطفال لا يعرفون الحدود والمسافات لكنها تستطيع ان تتخيل ماذا يمكن ان يحدث لو ان احمد مازال طفلا ، وحلا لها ذات يوم ان تصطحبه معها ليلعب مع اطفال سيدة البيت ، على أية حال ولدها صار رجلا ، وغدا تزوجه ويرزق بأطفال يملأون دنياها سعدا ، ولعلها تقتنع امام اصراره ، فتوافق على ابنة الجيران الشقية الخبيثة ، يا فرحها يوم يتزوج ، أعذب الحكايا وأحلاها سترويها على أطفاله ، ستربيهم بنفسها ، ولن تشبع منهم قبلا ، حقا من خلف ما مات ..

الحرب .. نعم هي مستمرة الآن ، لكنها ستتوقف اخيرا .. عندنا طائرات وصواريخ ، سلاح كثير ، ما فتح وما رزق ، أهم من ذلك كله عندنا إيمان ، ورجال صادقون . .

أتاها صوت أحد الباعة ينادي الناس الى

بضاعته •• تاقت نفسها الى الشراء ، كلا ، قد يحتاج احمد الى النقود ، ثم أنها اعدت له عشاء طيبا •

- ماذا تطلبين ؟

نظرت بانكسار الى البائع ، كان أبو أحمد يوصيها دوما بالتفكير ويحذرها من حمى الشراء والانسياق وراء الرغبات الانية ، وطالما ينبهها من غدر السلعة ساعة الغفلة ، وها هي ذي حريصة على الوصية ، لا تنفق قرشا واحدا في غير ضرورة ملحة ، وقد وعدها أحمد أن يعوض لها كل شيء يوم تنتهي خدمته الالزامية انه ميكانيكي بارع ، وحرفته تدر ذهبا •

طالت غيبته ، وقد اشتاقت اليه كثيرا ، فليته يصدق الوعد ، ولا يفجعها بالاعتذار ، ليته يأتي ولو لدقيقة واحدة ، تعانقه فيها ، تشم رائحته ، وتحلق في أفق من الانتشاء لا يزول ولا ينتهي •

**

عبرت بها سيارة اسعاف عسكرية ، انشدت اليها عيون الناس ، خاطب أحدهم صاحبه :

- شهيد ••

تنهد الآخر ••

- عليه الرحمة ••

نظرت اليهما قائلة :

- الشهداء لا يموتون ••

سألها أحدهم :

- ماذا لو كان الشهيد ابنك ؟

- الشهداء كلهم أولادي •

••

خرجت الكلمات حارة قوية ، وتابعت السير نحو البيت ، عند المنعطف الأخير ، انكمش قلبها بغتة ، دب الخوف في مفاصلها ، استباح شرايينها ، احست كأنما حل بها شلل مفاجىء ، تحاملت على نفسها ورفعت يدها تلمس جبينها ••

ظلت اليد مرفوعة ، تحي فارسا ، طلع من سيارة الاسعاف العسكرية ممتطيا صهوة جواد أدهم ، وراح الدمع يروي أخاديد الوجنتين ••

أسعد الحسين

شكوى

شعر: خضر الحمصي

قلبي فديتك في هواك يهيم ... وأنا على العهد القديم مقيم

بيني وبينك عروة ومواثق ... لا يقطع العهد الوثيق كريم

الدهر أبعدنا وفرق بيننا ... لا تحسبي أن الفراق يدوم

فغدا سيجعمنا الزمان بظله ... وتردنا للذكريات رسوم

أوما شكونا لليالي غدرها ؟ ... ولكم دعانا للبكاء نغوم ؟

أوما احترقنا في الغرام مودة ؟ ... وحنت علينا روضة ونجوم

ولكم سقينا الزهر من أكوابنا ؟ ... وأباح سر العاشقين ظلوم

عشنا الحياة بظلمها ونعيمها ... ولكم وشى للحاسدين لئيم ؟

كيف أفترقنا لست أدري والهوى ؟ ... قدر بقلب اليائسين رحيم

عمرت قلبي بالوفاء محبة ... يا ليت قلبي عن هواك يريم ؟

قد تاه فكري في الوجود غواية ... وأصاب قلبي بالسهام غريم

إني تعبت من الهوى وتمردت ... ما بين أحنائي رؤى وهموم

فلكم رحلت عن الديار مسافرا ؟ ... ولكم بكى عند الرحيل عظيم ؟

ويحيط بي يأس ويغرق ناظري ... دمع كأني في الحياة يتيم

ناجيت باسمك كل الاء الدنا ... وعبرت دربي والظلام قتيم

وحملت أتراحي لعلي انتهي ... فيشدني عهد إليك قديم

يا طول ليلي والجراح ندية ... أيطبب الجرح القديم حكيم ؟

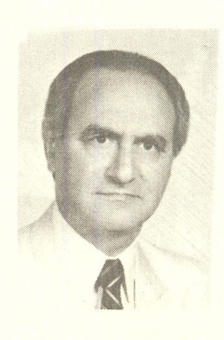
كل الدروب عبرتها متفائلا ... إلا ودرب الحب فهو عقيم

أيظل يغريني المسير بلا هدى ؟ ... ويغيب عني صاحب ونديم

لا مات قلب مسرف بوفائه ... يمضي بدرب الحب وهو كليم

القيمة الإنسانية في الوجود

بقلم



ندرة اليازجي

إذ ننظر الى الكون نظرة فاحصة ، تأملية وعقلية وتحليلية ، تتراءى لنا حقيقة عميقة الغور ، ممتدة في ذاتها الى مالانهاية ومنبثة في الكل ، وتبدو هذه الحقيقة كأنها سلسلة محكمة تبدأ من الادنى - هذا ، اذا جاز لنا ان نتحدث عن

تراودني هذه الفكرة وأنا أتعمق في فهم نفسي وأتأملها ، في صمت داخلي ، أتأملها وأتأمل الكون بشموله والكيان الاجتماعي بواقعه ومثاليته ، وفي هذا التأمل الثلاثي البعد أتساءل : كيف يمكنني ان أكون شاملا ؟ وكيف يمكن ان يكون الكون كلا ؟ وكيف يكون المجتمع انسانيا وعالميا ولا يدهشني أن أجيب عن هذا التساؤل معلنا شمول الكون ، وشمول الحياة ، وشمول الكيان ، وشمول الانسان ، وشمول المجتمع ، وشمول المادة فإذا كانت الحقيقة بذاتها تثبت في الكل ، وتتجلى من خلال الكل ، وفي الانسان ، ومن خلاله ، وفي المجتمع ، ومن خلال انسانيته ، كانت العالمية او الشمول او الكل هو المبدأ الفاعل في الكون عامة وفي كوكب الارض خاصة ، ولئن كان الشمول المبدأ الفاعل في الكون والانسان ، لكنني أتساءل : كيف يمكنني أن أفسر الكثرة او التعدد الذي يترامى أمامي ؟

ثمة تعددية في الوجود ، وثمة وحدة ايضا ، والوجود ، بكل تأكيد ، تعددية في وحدة وكثرة في واحد ، والقضية الرئيسة التي تطرح ذاتها ، تكشف عن مضمونها في سؤال يوجهه كل ذي عقل نير ومفكر حكيم ، كيف توجد الكثرة في الوحدة ؟ وتحيا فيها ؟

تبدو لنا مفارقات الوجود وتعارضاته في حالات ثلاث تشير الى الحقيقة المذكورة ، وباستطاعتنا ان نوجزها في موضوعات ثلاثة أو في مقولات ثلاث :

أولا - سلسلة الوجود الكبرى :

الاعلى وعن نهاية في الاعلى - لتنغلق على ذاتها في دائرة ، ونحن لا نستطيع ان نعيش الادنى بأكثر من قولنا بأنه لا نهاية الصغير ، كما اننا لا نستطيع ان نعيش الاعلى بأكثر من قولنا بأنه لانهاية الكبير .

وبين هاتين اللانهايتين اللتين عبر عنهما باسكال بهوتي الوجود واصطلح على تسميتهما تياردوه شاروان بتشابك اللانهائيتين في الانسان الذي يشكل لانهاية ثالثة بحيث انهما تلتقيان وتتداخلان لتشكلا دائرة ، او حلقة دائرية ، ينغلق فيها الوجود على ذاته ، وتبدأ سلسلة الوجود الكبرى ، وترتقي او تنفتح أدنى الظاهرات الى أعلاها ، وبارتقائها او انتاجها ، هذا تتدرج ، بتماسك حقيقي ، واتصال لا يعرف الانفصال ، تعبر من خلالها كل ظاهرة عن وجودها بالاخرى ، ولا نبالغ اذا قلنا ، ان هذه السلسلة شبيهة بالعقد الذي يجمع حلقاته خيط يعرف الوحدة والتماسك ، وإننا نجد هذه السلسلة في الترتيب الذي تنطلق فيه المادة من أدنى مستوياتها في التأليف الى أعلى مستوياتها في التأليف . وبقدر ما يدلنا هذا التسلسل المترابط الذي لا يعرف الانقطاع في اي من حلقاته على ان الوجود وحدة متراصة ، في كل عناصره ، وفي ترتيباته المنتظمة ، التي تنطلق من مقتضياته الادنى والابسط لتصل الى الانسان، الحلقة الوسطى المتدة وفي تنظيماته او ترتيباته الكونية لتنطلق من اصغر مافي الكون الى أكبر مافيه ، كذلك يدلنا على كثرة ظاهرية وحدة باطنية .

ثانيا - اللاتمايز والتمايز :

كيف ندري ان كانت الحياة قد بدأت بالتمايز أو أنها كانت لا تمايزا ؟ إن عالما مثل تيارده شاروا، يعتقد ان جميع الاشياء قد انطلقت من حالة لا تمايز متجانسة عرفت بأنها عجين قابل للتمايز الى خمائر عديدة ، أودقائق متناهية في الصغر أتت منها الانواع المختلفة والمتنوعة ، فكل ما نراه في الكون ، وعلى الاقل في كوكبنا الارضي ليس إلا عجينا واحدا ، مادة أولية تمايزت الى عدد كبير جدا عرفت بالأنواع .

واذا كانت هذه التمايزات الظاهرية قد انبثقت من حالة لا متمايزة لكنها متجانسة ، لتعود وتلتقي في الانسان بعد مرورها بالتمايزات العديدة ، فإنها تتضمن في حقيقة واحدة تعرف بالكثرة والوحدة . لذا ، كان كل من العالم والانسان واحدا وكثيرا .

ثالثا - الكل الكبير والكل الصغير

إذا كان الوجود في أكبره او في لانهايته يشتمل على ذاته في لانهاية صغرى ، فإننا نقول بأن الكل قد تقلص بفعل ذاته الى لانهاية صغرى فكل ما نراه في الكون الاكبر نراه ايضا في الكون الاصغر ، فلا شيء في النظام الشمسي الا وهو موجود في الكل الصغير ، لذا كان الصغير تقليصا للكبير وليس جزءا منه ، وإذا ما تساءلنا ان كيان الميكروكوزم جزء من هذا الكل ، او كان الكل المنفلت او الملتف او المنطوي على ذاته في حركة داخلية ، كما النقطة التي هي تصغير الدائرة او انغلاقها على ذاتها ، أجبنا : ان أصغر ما في الكون لا يعتبر جزءا، بل يعتبر تصغير لما هو أكبر او تكثيفا له ، وذلك لكي تتم عملية الحياة بحيث تكون القوة الفاعلة في كل شيء ، والحق ان هذه العملية لا تنقسم بل تقلص الى جذورها الدنيا ، فكل يقع بين هذا الحد الادنى من الوجود ، الكون الصغير ، عالم الصغير ، وبين الحد الاكبر والاعلى ، الكون الكبير ، عالم الكبير ، عبر الانسان هو سلسلة الوجود الكبرى التي تنتظم في مراتب متلاحقة ، متماسكة ومتجانسة على نحو حياتي ، تتفرع تتنوع ضمن حقبة واحدة ، هذا ، لأن الكون

نسيج واحد متداخل خيوط الحياكة ٠

هكذا ، نرى كيف يمتد الكون في لانهائيته ، كما امتداد كل كوكب بين قطبيه ، ليعبر عن وحدة متماسكة ، بين أنماط النظام الواحد ، بين ما هو أكبر وما هو أصغر ، بين النظام الواحد ، والانظمة الكثيرة المتضمنة فيه ، ليكون التعبير عن أحادية تنبثق الى تعدد كثير وتنبث فيه ، ينشب بدوره ، حتى يعود ويلتقي في أحادية ، تعبر الاولى عن ألف الوجود والثانية عن يائه ، ولعل نظرية التطور ، كما يقدمها لنا تيارده شاردان ،ترينا مسيرة الحياة على كوكب الارض انطلاقا من حالة اللاتمايز المتجانسة الى حالة تمايز كثيرة ، تتفرع ، وتتفرع ، وتسير في منحياتها العديدة ، وفي تشعباتها ، حتى تصل اخيرا الى الانسان الذي يطورها ، ويتطور معها ، على نحو عقلي وأخلاقي وروحي حتى يبلغ الوعي الكوني

في المادة الاولى ، او في الخلية الاولى ، ينغلق الكون على ذاته ، تماما كما ينغلق الانسان في خلية في رحم الام ، وكما تنغلق الشجرة في بذرتها ، ولسوف تنتقل هذه الخلية الى حالة اتلمايز ، فتعرف شتى الانواع ، وعند هذا الحد ، يبدو الوجود وكأنه تنوع لا تحد ، ولكنه ، بعد مسيرة طويلة ، تبدأ الانواع في عملية جديدة ، هي عملية لقاء أو تلاق ، او عملية تضييق على تمايزاتها ، فتسير باتجاه لقاء أكثر لتجتمع أخيرا في الانسان ٠

هكذا ، تعود حياة الكون على مستوى كوكب الارض ، مرة أخرى لتلتقي في الانسان وتنطوي فيه بعد ان عرفت حالة التمايز والتنوع

وبظهور الانسان ، وهو الملتقى الجديد لتمايز كبير ، تبدأ حركة جديدة من التمايز، ذلك أن الجنس البشري يتنوع ، فتتشكل الانواع، ويبدو الامر كأن الحياة في المادة وفي الانسان لا تلتقي عند نقطة ، او لا تعرف الوحدة لكن هذا التمايز يعود مرة أخرى ليجد طريقه الى الوحدة ، وليس طريقه هذا الا اجتماعية الانسان التي نعتبرها إنسانية الانسان ، ولما كانت الكرة الارضية منحنية ، أي دائرة مغلقة ، فإن التلاقي في الاجتماعية امر محتم وضرورة وجودية كبرى ٠ فالانواع تلتقي بالفكر والعقل العام المشترك ٠ وتحتك الحضارات مع بعضها ، وتزداد العلوم نتيجة لتبادل المعرفة ، وتنمو وتتطور ، وتتحسن طرق المواصلات والنقل ، ويزداد العالم الارضي تماسكا على نحو شعور واحد يحتويه ،او على نحو روح واحد يحييه ، ذلك في سبيل تكوين مجتمع يلتقي فيه الانسان مع الانسان وهكذا يعود التمايز النوعي الى الالتقاء في انسانية الانسان واجتماعيته ، وتسير الكثرة النوعية الى غايتها التي تعرف بشمول كوكبي ارضي ، ليحقق لقاء بين الانسان والانسان ٠

وفي حالة الانسان هذه نرى كيف يتفاعل الانسان مع الكل ، ففي جسده تم اللقاء بينه وبين الكون في عملية مباشرة ، في شعور مباشر، هو حدس مباشر ٠٠ إنه يتحد مع الكون المادي من خلال طعامه وشرابه وتلاؤمه مع البيئة ، ذلك لأنه والوجود حقيقة واحدة ، ويتحد مع الغلاف الغازي في تنفسه ويتفاعل معه ، كما يتحد مع النور والحرارة الرائعة الكونية الأخرى ، ويتحد مع الانسان بأنواعه الانسانية العديدة ليمتد في نفسه وفي صورتها الاجتماعية والكونية الى مالانهاية ، وهكذا يكون الانسان النقطة الشبيهة بمركز تلتقي فيه الدائرة كلها ، او البؤرة التي يلتقي الكون كله فيها والمجتمع الانساني كله أيضا ٠٠ وسوف تمتد هذه النقطة المركزية مع امتداد الكون ٠

إذ نبلغ هذه النتيجة المجردة ، نطرح على أنفسنا السؤال التالي : كيف تكون المستويات التي تتحقق فيها عالمية الانسان وشموله ، إذا نحن أخذناها من النواحي أو الابعاد الاجتماعية

والانسانية والفطرية والعلمية ؟

١ - المبدأ العلمي :

في القديم قال فيثاغورس ، والفيثاغوريون ان العالم نغم ورقم ، نغم هو موسيقا ، ورقم هو عدد وقياس ، ويشير هذا القول الى مبدأ الانسجام ، والتناغم ، والتوافق والتناسق ، فالكون في رأي فيثاغوروس ، موسيقا ، تنسجم أنغامها وتتوافق ، لذا لا يخرج هذا الكون عن نطاق التعبير عن معقولية الوحدة ، فهو في شموله وتعدده ، وحدة قائمة بذاتها ، وليست أجزاء الكون الظاهرية الا أنغام الموسيقى التي تتسامق في الانسجام ، وهكذا ، يكون الكون نغما ، ولم يقف فيثاغورس وأتباعه عند حد اعتبار الكون نغما ، فهم ، بالاضافة الى ذلك ، اعتبروه رقما فكما تتسلسل الارقام وتتعدد من الواحد ، لتعبر عن وحدة متماسكة تجد ذاتها في الواحد عبر أحجامها الكبرى واتساقاتها ، كذلك تتماسك أجزاء الكون بحيث أنها تتضمن في قاعدة او معادلة وجودية واحدة ، فللكون ، لمن يستطيع الاستماع اليه ، لو أتيحت له نقطة خارج النظام الشمسي او غيره ، موسيقا تنشأعن النسب الرياضية القائمة بين الكواكب او الوحدات ، وفي مساراتها ، فالكون اهتزاز ، والمادة درجة من درجات هذا الاهتزاز ، والانسان يهتز مع هذا الاهتزاز ٠

والمادة ، كما يشير اليها العلم ، بصفاتها وخصائصها العديدة الكيميائية والفيزيائية والبيولوجية تعبر عن وحدة شاملة ، فما الظاهرات الا تناسقات او انساق في وحدة ،فكأن الكون نسيج من الموازييك ، تحتل كل قطعة مكانا في نظام واتساق ، فالظاهرات المتنوعة تتناقض بظواهرها وتتكامل او تتحد في باطنها، الكون امتداد لوحدة شاملة وليس تناقضا ، وثنائياته وتعارضاته ، تبدو للمتأمل ظاهرية فقط٠

هكذا ، يستطيع العلم أن يتلمس الحقيقة الواحدة ، والشاملة والعالمية ، من خلال الظاهرات العديدة ، فهذه ، في كل عملية استقراء ، يصل الى القوانين الكلية الشاملة ، لذا ، نستطيع أن نذكر ضمن قائمة العالميين أفذاذا مثل فيثاغورس وأفلاطون وانشتاين وغيرهم ٠٠ اولئك الذين تكلموا باللغة العالمية ، وأشادو صرح الشمول في دراستهم للقوانين الكونية ٠

وفي عالم العلم هذا ، يرتبط الضمير بالكل ، ذلك لأن إطار الحقيقة واحدا فالجسد الانساني بتعدد أجزائه وأقسامه وأعضائه ، وحدة متماسكة ، شاملة ، وكلية ، والحق ، أن دراسة الجزء المعزول قضية مستحيلة ، وتخفق الدراسات التي تعتمد هذه الطريقة ذلك لأن الكثرة الجسدية والاعضاء كلها ، متحدة في عملها وجوهرها بحيث أن كل عضو يمتد الى الكل ويحيا في الكل ، وان ما ينطبق على الجسد ينطبق على الكون ٠٠ هذا ، لأن للكون جسدا واحدا ونفسا واحدة تنبض بالحياة ، وللانسان جسد واحد ، ونفس واحدة تنبض بالحياة ٠

٢- البعد الفكري :

يصعب علينا ان نفرق بين الناحية العلمية والفكرية فكلتاهما كلية شاملة ، فكما ان العلم يبحث في القوانين الشاملة ويبغي الوصول الى اكتشاف الكل في الاقسام والتعدديات ، كذلك يبحث الفكر في الكل ، إذ ان كل تصرف او فعل وموقف كلي أو تعبير كلي ، فما يراه الانسان من تعدد وكثرة ، ليس الا حقيقة واحدة ٠

كيف أستطيع أن أرى ألوان ضوء الشمس ما لم تنعكس على كوكب الارض ؟ فالنور لا يكشف عن ألوانه الا في انعكاس تعدد ألوانه ، والتعدد هذا نور واحد ، والحياة لا تكشف عن

ذاتها إلا في التعدد والكثرة ، ولما كان كل شيء ينبض بالحياة ، كانت هذه الحياة خلفية الكل ، وواقعه ايضا ، وكيف أستطيع أن أفكر في الوجود مهما بدت لي ظاهراته إلا ككل ؟

إذن ، فالحياة ، والنور ، والفكر كله ، والوجود كله عالمي وشامل ، وكل عملية تجريد عقلية تقودني الى الكلية المطلقة ، انطلاقا من نسبة ظاهرية ، أو من تعارضات ، أو ثنائيات ، أو تناقضات اصطلاحية ، ونحن ، إن أخذنا مفهوم التجريد ، وجدنا بأنه يؤدي بنا الى الشمول والعالمية ، ولو تساءلنا عن حقيقة البياض والصفرة والحمرة ، الخ .. لوجدناها تجريدات مطلقة ، هي انعكاسات النور المتعددة ، في وحدة قائمة بذاتها . وإن أنا تحدثت عن الثلج ، تساءلت كيف أستطيع إثباته ما لم أقل إنه أبيض؟ وكيف يمكن ان يقبله العقل الانساني او يتصوره ، ما لم يكن أبيض ؟ وإذا اضفنا الى هذه الحيرة مسألة البياض ذاتها لوجدنا أننا لا نتحدث الا في المطلق المجرد ، ولا شك ان قول برغسون بأننا نحيا في المطلق صحيح الى حد بعيد .

٣- البعد الانساني :

لا يسعنا ان نبحث مسألة الانسانية الا من ناحيتين : ناحية الانسان الفرد ، وناحية الانسان الاجتماعي .

اتساءل : كيف أستطيع أن أتصور الانسان الفرد ؟ وأين يوجد هذا الانسان ؟ وإذا أقمت شبها بينه وبين الجسد تساءلت : كيف يمكنني أن أتصور القلب وحده ، أو الدماغ ، أو عضوا من أعضاء الجسد ؟ هل يوجد عضو بمفرده ؟ وما هو ؟ وكيف يكون ؟

من هو الانسان الفرد؟ والانسان الفرد غير موجود ، هذا ، لأن البشرية بدأت بجماعة ولم تبدأبفرد ، وهذا ما أثبتته الدراسات البالينتولوجية .إذن ، فالفرد غير موجود ، وان وجد هذا الفرد ، فما هو ؟ ما فكره ؟ ما أخلاقه؟ وهل يكون للفرد تفكير في حالة فردانيته؟ وهل تكون له قيم ومثل ومفاهيم ؟

لما كانت استحالة وجود الفرد قائمة ،فإن الانسان الاجتماعي هو أصل الفكر ، وأصل المعرفة وأصل الانسانية ، فلا شمول إلا في الانسانية ، ولا عالمية إلا في المجتمع .

ولو أننا ألقينا الأسئلة التالية لتكشفت لنا أهمية موضوعنا هذا ، لو وجد الانسان في حالة فردانية ، فكيف يكون صادقا أو كاذبا ، مراوغا أو مستقيما ، متكبرا أو متواضعا ، مستغلا أو منصفا ، ظالما أو عادلا ، محبا للحق أو ميالا الى الجور، جاهلا أو متعلما ، واعيا أ لاواعيا ، عاملا او خاملا ، الى ما هنالك من قيم ومفاهيم . والجواب يستقيم متى علمنا أن هذه القيم غير موجودة الا في المجتمع ، فالمجتمع هو حقل تحقيق إنسانية الانسان ، ونحن على سبيل المثال لو ألقينا نظرة على أنواع الوجود البشرية بتعدداتها وتمايزاتها ، لعلمنا أن هذه الكثرة دليل على الوحدة أكثر منها دليلا على الاختلاف والتباين ، إن وجود الاخرين تدلني الى حقيقتي، فلولاها لما عرفت نفسي ، لذا ، لا تحمل الوجوه العديدة مبادىء التناقضي بل التكامل ، فالانسان في تعدد وجوهه واحد ، وعلى سبيل المثال ، لو نظرنا الى أنواع الانسان لوجدنا تناقضا ظاهريا ، لكن ، متى تعمقنا ، وجدنا وحدة الهوية ، فكأن الانسان بأنواعه ، وكثرة أفكاره ، تلتقي في دائرة واحدة تتشعب منها إشعاعات كثيرة تعبر عن حقيقة واحدة ، وإذا ما نظرنا الى أنواع الافكار ، لوجدناها كثيرة وعديدة ، ومع ذلك ، نعلم أنها تجتمع في وحدة هي الانسان ، وإذا ما تفحصنا الكرة الارضية بتنوع اراضيها وأقاليمها ، لاحظنا كثرة تعبر عن وحدة ، فكأن الحقيقة الواحدة ، والعالمية والشمول ، لا تتحقق الا من خلال الكثرة

لذا ، لا يخيفني التعدد لأنني أعتبره معالم حقة للوحدة .

تتحقق عالمية الانسان على صعيدين : صعيد المجتمع الواحد في الوطن ، وصعيد المجتمع العالمي والانساني ، ففي المجتمع الواحد يتحد الأفراد ضمن حقيقة واحدة ، يرى كل انسان ذاته في الاخر ، فالانسان يمتد في الانسان ولا يكون خلاص هذا الانسان إلا في الانسان ومن خلاله ،فكل اساءة تصدر عني نحو الاخر ، تعتبر اساءة للبشرية جمعاء ، وكل محبة تصدر عني نحو الاخر تعتبر تضمين للبشرية جمعاء ، هذا لأن الانسان يشتمل على الانسانية كلها ، الناس كلهم ، في كيانه الخاص ، وعلى صعيد المجتمع العالمي ، والانساني ، يعمل الانسان على وضع قواعد العدالة والمساواة التي هي مفاهيم مطلقة للجميع ، لا ينكرها احد ، لأنها شاملة وعالمية ، وأن هذه العالمية او الانسانية لا تشير من قريب او بعيد الى تشكيل واقع عالمي بقدر ما تشير الى تحقيق الانسانية في المجتمع .

يجدر بي ، في هذا المجال ، أن أذكر أن اجتماعية الانسان ، تختلف عن تجمع الحيوان للحيوان حياة تجمعية ، هي فردية مكررة ، لا تدرك ذاتها في إطارها الفردي او الجماعي ، أما اجتماعية الانسان فهي انعكاسه في الاخر ، وامتداده في هذا الاخر ، والانسان لا يجد نفسه الا في الاخر ، ولا يكون لوجوده معنى الا في الانسانية الشاملة ، ففي اجتماعية الانسان تحقيق للغاية التي وجد من أجلها .

ترينا اجتماعية الانسان كيف ان الانواع البشرية تجتمع في بؤرة واحدة وتلتقي في نقطة واحدة ، ففي أنحاء العالم كله مبادىء تسعى الى التحقيق ، وأصبح العالم وكأنه يسير الى انسانية أفضل ، إلى عالمية أسمى ، وذلك من خلال وعي ذاته في الاطار الاجتماعي ، الوطني والدولي ، وكما ذكرت سابقا ، فقد تجمعت عناصر الطبيعة العديدة في وحدة هي الانسان ، ظاهرة الوجود الكبرى ، وعاد الانسان ليتوزع مرة أخرى في أنواع تلتقي في وحدة إنسانية شاملة أو تكاملية .

يجدر بي ، وقد بلغت هذا الحد من البحث ، أن أتحدث عن بعض المعالم التي تجعل مني كائنا شاملا ، وأذكر بعض المساوىء او العقبات التي تحول دون تحقيق شمولي .

من خلال شخصيتي أرى الوجود المتمثل فيَّ . فالشخصية تناقض الفردية ، في الشخصية تكتمل إنسانيتي ، وأنفتح على الكل ، وفي الفردية تتقلص إنسانيتي .

ومن خلال مهنتي أكون شخصا أو فردا فان لامست العالم كله في مهنتي ، وجعلت منها وسيلة للاتصال بالكل ، كنت أنسانا عالميا ، إن خدمت العالم كله في مهنتي ، خفقت شخصيتي وكياني اللذين يمتدان الى الكل ، وإن جعلت من مهنتي وسيلة لتحقيق فرديتي ، وكنت أعيش ضمن قوقعة الانا ، تهاوت عالميتي وانبثقت ذاتي

من خلال عملي ، أيا كان عملي ، تظهر عالميتي ، في أجلى صورها، فإن جعلت من عملي نقطة يلتقي فيها الكل ، أو أنظر الى الكل منها رأيت الانسانية جمعاء ، وحققت العالمية، هكذا ، أربط عملي او مهنتي أو فكري بالوجود الكلي ، بالغاية السامية ، بالانسانية كلها ، بالمجتمع كله ، فإذا تطابق عملي مع الغاية من الوجود ، مع القوانين الكلية ، مع اجتماعية الانسان ، فإنني أكون عالميا ، إذ تتجلى عالميتي في مظهريها : الفهم والتطبيق ، فهم الوجود والغاية منه ، وتطبيق هذا الفهم والغاية ، ولما كانت غايتي في الوجود تتمثل في المعرفة ، وكان وجودي الاجتماعي تحقيقا للغاية التي من أجلها وجدت ، فإنني أضع نفسي في خدمة الانسان ، لأمتد فيه ، فأحقق وجودي ، أي عالميتي ، فأنا قد وجدت لأحقق أنبل المبادىء وأسماها .. أنبل ما في

الكون وعندما أدرس أعماق هذا الكون ، عمق المعرفة ، أجد نفسي ، أنادي بأمر واحد هو : ان أنسجم مع الكون في غاياتي الكبرى التي أعبر عنها باجتماعية الانسان ٠ وبعالمية الرؤية وبالتجسيد العملي لها ٠

عالميتي هي أن أجعل من نفسي كائنا يحقق عمق وجوده ، وعالميتي تشير الى ان أربط كل عمل أقوم به ، أو كل فكرة تخطر لي بالعالم كله ، فإن انسجمت مع الاعداد الغفيرة من الناس كما تنسجم أعداد فيثاغورس وأنغامه في وحدة متماسكة ، كنت عالميا في أعماقي ، وبهذا الشأن يؤلمني ان أقول إن المبادىء الكثيرة التي طرحت في حقل التحقيق كانت مجتمعية ، تجميعية اكثر منها اجتماعية ، لذا ، كانت بلورة زائفة للاجتماعية ٠

وإذ أتأمل عالميتي هذه ، أتجرد من كل أنانية ، ففي عالميتي أخدم غيري ، وأحبه دون أن أستغله أو أتكبر عليه أو أنبذه ، ذلك لأنني أرى الغير في وارى نفسي في الغير ٠ وإذا ما عسكت عالميتي هذه على الواقع ، رأيت نفسي في قلب الوجود والمجتمع أفعل فيهما بطاقة تحث وتنشط على الدوام من أجل اعلاء قيمتهما في الانسان ٠

ليتني أرى عالمية المجتمع الانساني كما أراها في عالمية القانون العلمي ، فالعلوم تتآلف ضمن حقيقة واحدة وتطبيق واحد ، ويبرهن هذا التآلف على وحدة العقل البشري ، ووحدة القانون الكوني ووحدة الحقيقة الشاملة ، ولذا ، لا تستقيم اجتماعية الانسان مالم ينسجم الانسان مع قانون وجوده ، ليطرح عنه كل ما يعيقه عن التحقيق ، لقد تعلمت من فلاسفة العالمية والشمول ان تحقيق الانسانية . ثم في تحقيق سلوك إنساني يطبق على الكل كقاعدة عامة ٠

رابعا - الانسانية :

الانسانية جامعة شاملة ، وكذلك الانسان ، إنها تمتد على الكون المادي والروحي ، وشمول الانسانية يجعل البشرية أجمعها أسرة كبرى واحدة تنعم في كنف المحبة والكل الشامل ، فإذا الناس جميعهم اخوة يتجمعون في الحقيقة السامية وفي الانسان ، وكل إنسان أخ لكل انسان ، بل جميع الناس ، إنسان واحد ، بوجود واحد وهو ركونية متعددة من الناحية المادية ٠ ان تعليم المحبة هو أن شمولها العالمي ، الانساني ، الجامع انما يرتكز على عقيدتها العظمى أن جميع الناس على اختلاف أعراقهم ، وألوانهم وأممهم ، يؤلفون جسدا واحدا ٠٠ مادة واحدة ٠٠ وروحا واحدة لا تتناقض بذاتها ٠

المحبة توجه الفرد الى رؤية نفسه في غيره الى معرفة نفسه في الاخر ، الى نفاذ فرديته واستغراقها فيها ، والى الشعور بوجود الافراد في جامعة تسمى الانسان ، وهو صورة الحقيقة السامية ، فهي إذن شعورا بالكثرة في الوحدة ، بالافراد في الانسان ، بالاجزاء في الكل ، وهي وجود شامل ترى فيه الانا ذاتها في الكل الواحد لا أفراد هناك ، بل تنوعات لفرع انساني ،تبلغ درجة الالتقاء المطلقة في الانسان ، ولما كنت انسانا وكنت أنسانا ، كان لقاؤنا في بعضنا ٠

المحبة مبدأ يتعالى على كل مبدأ آخر لأنها شريعة الوجود ، ولما كانت الحقيقة السامية هي المحبة ، كانت المحبة أنبل ما في الكون ، فالمحبة تجمع الكون كله فيها ، لذلك تحيا الاشياء كلها بعضها مع بعض ، في سكينة المحبة فالمحبة هي الجاذبية في لغة العلم ، هي جاذبية الخلية للخلية ، والذرة للذرة ، والجوهر للجوهر ، والنوع للنوع ، والانسان للانسان ، والكواكب لبعضها ، هي إذن تماسك الوجود ، متناغمة ،

بعضه مع بعض في كل متحد ، ولولا هذا الملاط، ملاط المحبة - الجاذبية ، لتنافرت العناصر وانفرط عقد الكون والوجود ، لذا ، تجذب الاشياء والموجودات كلها بعضها الى بعض في المحبة - الجاذبية - والمحبة الجاذبية هي الحياة في الانسانية •

تتحقق الانسانية في شعور الانسان بعالميته وشموله ، ولما كان الانسان الواحد قد وجد بأنواع عديدة في جميع أنحاء العالم (١) فإن فكرة عالمية الانسان تتخلل جميع الأمم والشعوب في جوهر الانسان الواحد ، المجرد والمشخص الواقعي ، والانسان المجرد هو الشعور بإنسانية الانسان ، وليست الانسانية إلا إنسانية هذا الانسان • إن هذا الانسان المجرد هو صورة الانسان الواحد في الانواع الانسانية ، هو فكرة الانسان الشاملة •

أما الانسان المشخص الواقعي فهو الانسان الكائن الحي العاقل الذي يهدف ، من خلال كثرته وتعدده ، الى غاية واحدة ، ويشارك في فكر واحد ويتعاطف في شعور واحد •

إن آمال الانسان المتصاعدة من انحاء العالم كله تشير الى وحدة الوجود الانساني والى تحقيقه في شعور واحد متكامل •

إن عالمية الانسان مبدأ يحثنا على احترام الانسان وتقديره واعلاء شأنه ، والانسان الذي يتميز بهذه الصفات لا يكره الاخرين لأنه لا يكره نفسه ، ولا يستغل الاخرين لأنه لا يستغل نفسه، ولا يتكبر على الاخرين لأنه لا يتكبر على نفسه، والانسان الذي يكره نفسه ، يكره الانسانية كواقع وفكرة وتشخيص • أما المقومات التي تعتمد عليها محبة الانسان وإعلاء شأنه فهي :

١- إن كنا نعتبر الانسان ثمرة تطور الحياة على الارض ، فإنه لا يحق لنا أن نقلل من أهمية وجوده ، هذا ، لأن تنمية الشجرة او العناية بها تشيران الى غايتها ، تتجلى هذه الغاية بثمرة هي نتاج وجود الشجرة • ولهذا ، نعتبر القضاء على الثمرة خطأ فادحا لأن الغاية التي من أجلها وجدت الشجرة تنعدم ، وينطبق هذا المثل على حقيقة الانسان وواقعه ، والحق ، أننا نلتزم باحترام الانسان لأنه ثمرة تطور الوجود والغاية منه ، وقد فعلت الطبيعة أحقابا زمنية مديدة لإثماره • فالغاية التي من أجلها وجدت الطبيعة غاية نبيلة تستحق الاكرام والمحبة •

ب - ان كنا نعتبر الانسان تشخيصا لوعي كوني غير محدود ،فمن واجبنا ان نجل وجوده ، فالانسان ، الذي يحيا ضمن دائرة الوجود ، يتجاوز الوجود موليس شعوره باللامحدود ، الا دليلا على لامحدوديته ، انه الفكرة المجسدة للانهاية لا متيقنة ، والانسان فكرة الكون وغايته يستحق الاكرام والمحبة •

جـ - ان كنا نعتبر الانسان فكرة شاملة لوجود البشر أجمعين ، فإن كل إهانة تلحق به تلحق بالجنس البشري أجمعه ، ان احترام الانسان يعني احترام الانسانية كلها ، والعنايةبه تعني العناية بالبشرية كلها ، ولما كانت محبة الانسان الواحد تشير الى محبة الانسانية جمعاء ، فإن الفكرة تستحق الجهد ، إني أرى العالم كله من خلال الانسان ، فالانسانية هي تحقيق إنسانية الانسان الواحد •

د - إن كنا نعتبر الانسانية متنوعة في لونها وعرقها ، في فقرها وغناها ، وفي أقطارها ،فلا يحق لنا استغلال الاخرين ، هذا ، لأن التنوع يشير الى التكامل ولا يشير الى التناحر • وان كنا أناسا أفضل من أناس آخرين ، لأسباب المعيشة او البيئة او اللون او العنصر ،فإن الانسان في رحلة حياته الارضية ، يمر في الاطوار كلها ويشتمل عليها موان هو افتقرها في غيره ،فإنما يفتقرها في نفسه ، ان كنت أعير غيرى بمبدأ فأنا عبد مثله في مجالات عديدة ، وإن كنت أعتبره زنجيا ، فأنا أكثر سوادا منه في أمور كثيرة • وان كنت أعتبره فقيرا او متخلفا ،فأنا

أكثر فقرا منه ، وأكثر تخلفا منه في انواع شتى إن محبتي للانسانية تدفعني الى عدم رؤية كل ما اعتبره عائقا او فاصلا بيني وبين الانسان .

هـ- ان كنا نعتبر الانسانية تسعى لغاية ، فإنه لا يحق لنا ان نعمل لنثبت التفرقة العنصرية والانقسام الاقليمي والتناحر، هذا لأن الغاية تشير الى تلاقي الاهداف التي تتفرع من الغاية الأصلية ، ولا تتحقق هذه الغاية الا بالمحبة واللاعنف والعيش بسلام وسعادة مع الاخرين .

ان عالمية الانسان ، كونه ينتمي الى عالم واحد ، والاخوة للانسانية لا تتعارضان مع اجتماعيته ، كونه ينتمي الى وطن ، فالانسان شبيه بالبؤرة التي تشع في اتجاهات ثلاثة :

١- من كيانه الى ذاته .

٢- من كيانه الى المجتمع .

٣- من كيانه الى العالم .

في البؤرة الاولى يشع الانسان وفق قاعدة أخلاقية فطرية تعبر عن ناموس روحي نحت فيه منذ البدء وتعتبر هذه المرحلة الاولى اهم المراحل الثلاث ، ذلك لأن الانسان الجوهر ، المجرد ، لا يسعى الى الاخلاق والغايات النبيلة لو لم تكن قائمة فيه ، لذا ، كان عليه ان يحققها اولا ، ومتى حقق الانسان معنى وجوده والغاية منه فإنه يشع في البؤرة الثانية التي هي الماهية والمجردة والاجتماعية ، الانسان المتحقق في الواقع ، اما البؤرة الثالثة فإنها تتجلى في نظرة انسانية تتجاوز حدود المجتمع الى الانسانية عامة ، والى الكون ولانهايته ، وتعتبر هذه البؤرة تحقيقا لانهائيا لانسانية الانسان ، وهو يشعر بانتمائه الى العالم كله .

الانسان في هذه المراحل الثلاث التي تعبر عن مثال واحد ، هو انسانية الانسان ومركزيته، يشبه الخلية التي تمتلك نصف قطر مشعا لذاتها لكي تشكل ذاتها ، ونصف قطر آخر مشعا تمده الى الخلية الاخرى التي هي الاخر ، لكي تشكل وجودا ، وتمتد الى العضو لكي يتم المجتمع ويكتمل فالعضو هو المجتمع ، والامتداد هو الاخر ، والخلية هي الانسان ، وليس من شك ان العضو جزء من مجموعة قسمت الجسد ، اي الكل ، وليس هذا الكل الا الانسانية ، لكن تشكيل العضو يبرز الى الوجود لأنه يغلف ذاته بذاته بسبب تفاعل الافراد ، أي الخلايا ، اي الوحدات الاساسية ، لذا ، تأتي خدمة المجتمع اولا والعالم ثانيا ، ولكن خدمة المجتمع والمحبة التي تضفيها عليه يجب الا تتناقض مع خدمة العالم ومع المحبة التي نكنها للانسانية جمعاء ، فالمجتمع ، في صورة الامة ، والعالم ، في صورة مجموعة الامم ، يتلازمان ويتكاملان في تقويم الانسان كوجود عالمي شامل ، وكلي ، يتجاوز الحدود والامكنة ، والأزمنة .

ان نظرة كهذه تفعل في عالم الواقع والتطبيق ، توجه الانسان الذي هو مصدرها ، الى المحبة والتلاقي ، وان تربية تقوم على هذا المبدأ مبدأ عالمية الانسان ، كفيلة أن تضع حدا للعنف والصراع بأشكاله كلها ، فالعالم الذي لا يتجزأ او لا ينقسم ، بسبب انسانية الانسان ، يتوقع تحقيق الانسان ، لغايته الانسانية ، الاجتماعية ، الشاملة ، والكلية .

ندره اليازجي

لامية العرب الجديدة

شعر: سعيد أبو الحسن

حدثتني عن الديار الطلول
فاسمعوها وحققوا ما تقول :

كنت دنيا من الحواضر تزهو
بصروح فوق السحاب تطول

دور علم ومكتبات عظام
ومشاف ليس لهن مثيل

خيم العدل فوقها فحماها
وحماها جهادنا الموصول

فاستمرت دهرا طويلا طويلا
انتهى الروم ضمنه والمغول

ومضت فارس ويونان ولت
ما عدا الحق كل شيء يزول

وورثنا الدنيا وراثة حق
ألبطولات مهرها والعقول

أيها الطامعون فينا استفيقوا
قهرنا أو زوالنا مستحيل

لا يغرنكم زمان من الضعف
مررنا به وقال وقيل

كل هذا الى زوال ويبقى
شعبنا في هذي الديار يجول

قدر نحن سرمدي المعاني

وقضاء لا يعتريه أفول

ارضنا تنبت الجبابر دوما

كل جيل يمضي سيتلوه جيل

نحن غابات سنديان وشوح

وسوانا عشب القفار الهزيل

راسخات جذورنا أبد الدهر -

وعمر الاعشاب حول يحول

نحن صافي الفولاذ والذهب الابريز

يشتد باللظى ويطول

كلما ازدادت المصائب زدنا

قوة والثبات فينا أصيل

جوهر نحن لا يدانيه زيف

أو صدا فهو لامع مصقول

يزعم الغرب أنه الموحد الحامي

حقوق الانسان وهو الغول

أين من زعمه سلوك مريب

يدعم الظلم والحقوق يغول

شعبنا ليس يقبل الذل والخذ

لان وهو المجرب المأمول

وهو لايخلف الوعود

فإن قال وفى إنه قؤول فعول

يوم كان أسطرلابنا يرصد

الأفلاك كانوا قطعان بهم تجول

حين دوت دقات ساعة هارون

وبانت من جانبيها الطبول (١)

حسبوا أنها القيامة قد قامت

وأن المسموع عزرائيل

ذاك سحر آت من الشرق قالوا

واستطارت قلوبهم والعقول

أمتي عاشت الثعالب بالكرم

لقد طال نومنا والمقيل

فاستعيدي مبادراتك وامشي

يفقد الحق مهمل أو غفول

عندنا المال والرجال وحق

واضح أين عذرنا المقبول ؟

سعيد ابو الحسن

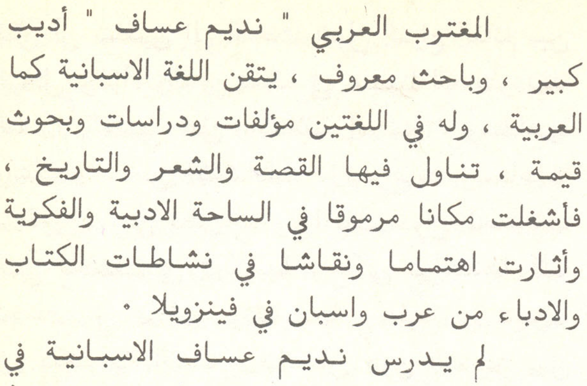


الرّجل والمرأة في المجتمع

من هو الانسان ؟

بقلم: نديم عساف - فنزويلا

تقديم: نعمان حرب



المغترب العربي " نديم عساف " أديب كبير ، وباحث معروف ، يتقن اللغة الاسبانية كما العربية ، وله في اللغتين مؤلفات ودراسات وبحوث قيمة ، تناول فيها القصة والشعر والتاريخ ، فأشغلت مكانا مرموقا في الساحة الادبية والفكرية وأثارت اهتماما ونقاشا في نشاطات الكتاب والادباء من عرب واسبان في فينزويلا ٠

لم يدرس نديم عساف الاسبانية في مدارسها وجامعاتها ، وإنما درسها على نفسه منذ هجرته الى فينزويلا عام ١٩٥٤ ، وأصبح من أدبائها وكتابها المعروفين ، ونسب عضوا في اتحاد الكتاب الفينزويلي ٠

وقد اصدر كتابا في السنة الماضية بعنوان الرجل والمرأة في المجتمع " باللغة الاسبانية ، اعتبرته وزارة الثقافة الفينزويلية ، بحثا اجتماعيا مهما كمرجع في الصفوف الاعدادية لطلاب السابع والثامن والتاسع ، كمادة ثقافية عائلية أجتماعية وصدر مرسوم جمهوري بإجازة هذا التدريس ٠

وشاء الاديب المفكر نديم عساف ، ان يترجم هذا الكتاب ، الى العربية ، كي يطلع عليه القارىء العربي ، فيعيد الى ذهنه ، ماضي الادب العربي المهجري ، ومدرسته الابداعية التي رفع بنودها الاولون ، والتي مازالت تخرج المبدعين وترفع أعلام الضاد في المغتربات ٠

ونديم عساف ، هذا الاديب العربي الموهوب ، يقف بمواهبه وعصاميته ، على شاطىء الكاريبي ، ليقدم الى الاعاجم أعظم صورة عن نبوغ الانسان العربي وكفائته ، عندما يغرف من مياهه العربية ، أصفى وأعذب ماقدمته الانسانية ، من غذاء للافكار والعقول ، تحمل طعمها العربي وتمزجها مع مياه الكاريبي وغيرها ، وتزيد في عذوبتها وصفائها ٠

وهذا الفصل من كتاب "الرجل والمرأة في المجتمع " يلقي الاضواء على أهمية البحوث التي يتضمنها ويدل على موهبة المؤلف وعبقريته ٠

قبل أن نتطرق الى البحث حول النزاع القائم بين الرجل والمرأة والذي تفاقم في عصرنا الحاضر بعد التقدم العلمي على اختلاف اسسه ، ومظاهره وأشكاله ، من اكتشافات واختراعات وصناعات متطورة ، من نظريات ودراسات حول المجتمعات التي تختلف في تركيبها وأماكن تواجدها كما تختلف في عاداتها وتقاليدها ، علينا أن نتعرف الى شخصية الانسان كإنسان دون التمييز بين ذكر وأنثى الى أصله وتركيبه الفيسيولوجي •

لقد اختلفت الآراء حول أصل الانسان ، لأنه لم يتوصل المؤرخون والباحثون والمحللون الى براهين دامغة تثبت ذلك بالرغم من الدراسات والبحوث المتعددة • كما أن التساؤلات لا تزال تدور حول هذا الموضوع ، من أين أتى ؟ ولماذا؟ لماذا يموت ؟. ماهو مصيره بعد موته ؟ الى أين يذهب ؟ ••

عندما يقف الانسان عاجزا عن الادلة والبراهين القاطعة حول هذا الموضوع ، وحول نفسه بالذات ، يلجأ الى الكتب الدينية كي يستريح من التفكير مستسلما ، حيث يجد النظرية الدينية في التوراة التي هي أول كتاب ديني يقر ويعترف بوجود خالق ومدبر لهذا الكون والذي يسمونه الله • هذه النظرية تقرها وتعترف بها الاديان السماوية من يهودية ومسيحية واسلامية على التوالي ، بغض النظر عن تفاوت الازمان واماكن تواجدها • حيث تقرأ بأن الله جبل ترابا من الارض ،صنع منه جسدا ، ثم نفخ فيه روحا ،فكان الانسان الاول الذي دعاه آدم ثم استل ضلعا منه جبله مع تراب الارض ايضا ، كون منه جسدا آخر اسماه حواء • عندما يتوقف الانسان عن الحركة بمعنى انه يموت يحملونه الى مثواه الاخير ويقولون انت من التراب أتيت والى التراب تعود •

هذه النظرية الدينية هي اعتقاد واستسلام وايمان ببدء الخليقة وظهور اول إنسان على وجه الارض ، ولكن العلماء والباحثين لم يقنعوا بهذه النظرية ، بل تتابعت الأبحاث حتى جاء داروين العالم الانجليزي ، لثبت نظريته العلمية بأن الانسان هو ابن الطبيعة ،تحدر منها ، تطور مع مرور الزمن خلال ملايين السنين حتى توصل الى شكله الحالي •

مما تقدم يمكننا ان نستنتج بأن النظريتين تختلفان نصا ، تلتقيان نتيجة ، بأن الانسان هو جزء من الطبيعة المتحركة ، يتفاعل معها ، يسخرها في سبيل حياته ، وتحقيق مآربه سعيا وراء راحته للوصول الى السعادة المنشودة • يبدأ تكوينه منذ أول لحظة تتحد فيها خلايا الحياة المتواجدة في جسمي الرجل والمرأة اثناء عملية الجماع بين الاثنين ، والتي لولاهما لما تتابعت الحياة ، كما هو الحال في اتحاد القطبين السالب والموجب في توليد الكهرباء التي هي مصدر النور والحرارة والقوة ، والفصل بينهما معناه الظلام ، كما ان الفصل بين الرجل والمرأة معناه توقف انجاب الاولاد ، ولولاهما لما تتابعت الحياة كما هو الحال في جميع المخلوقات الحية •

للمرأة جهاز خاص للحمل والولادة لا يمكن للرجل ان يقوم بهذه المهمة او الوظيفة ،بل هي ظاهرة طبيعية مفروضة لا جدال فيها ، كما ان للرجل جهازه الخاص لاتمام العلاقة الجنسية مع المرأة ، كما الحال بين التربة والماء ، كل منهما مكمل للآخر •

وإذا نظرنا الى تركيبة جسد الانسان ، وجدناها مجموعة من الخلايا مركبة تركيبا دقيقا ومنسجما لتعطيه شكلا جميلا ومعقدا أيضا • لأنه إذا مرضت احدى خلاياه تأثرت لأجلها الخلايا الباقية ، هذا التركيب المعقد ، يحتاج الى غذاء خاص ، يختلف عما تحتاجه اجسام باقي الحيوانات ، لهذا نجد أسنانه صالحة لمضغ اللحوم

والنباتات والخضار والفواكه كذلك أيضا تركيب جهازه الهضمي ، الذي يصلح لهضم مثل هذه المأكولات المتنوعة ، فإذا أخذنا بعين الاعتبار هذا التركيب المتميز ، لوجدنا بأن الانسان يجمع بين طبيعة الحيوان المفترس آكل اللحوم ، وطبيعة الحيوان المسالم آكل الاعشاب ، بالرغم من الدراسات والابحاث والنظريات التي تحاول الاثبات بأن الانسان يمكنه ان يعيش بطبيعة الحيوان المسالم ، ويعوض البروتينات الموجودة باللحوم بمثلها في النباتات والخضار والفواكه والحبوب ، ولو بكميات قليلة ، ليس هنا مجال البحث والتوسع في هذه النظريات بل للاثبات بأن الانسان رجلا كان او امرأة له نفس الطبيعة ومحتاج الى نفس الغذاء .

الانسان هو الانسان أين ولد واين عاش ، بصرف النظر عن لون بشرته ، او لغته ، او جنسيته ، كما ان عملية الجماع هي واحدة ومدة الحمل تسعة أشهر كاملة الا في حالات شاذة ، كما انه يأتي الى الحياة عاريا ويتركها دون ان يحمل معه شيئا من متاع الحياة مرغما كما يغادرها دون اختياره ، وما أصدق عمر الخيام في احدى رباعياته حيث يقول :

لبست ثوب العيش لم استشر
وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عني
ولم أدرك لماذا جئت أين المفر؟

..

أما اذا بحثنا عن دوافع الانسان نجد بأن الطبيعة قد زودته بالغريزة الجنسية التي تتواجد فيه منذ ولادته ، كما أثبت الباحثون ، ولكنها تبقى كامنة حتى يصل سن البلوغ عندما تبدأ بالظهور كي تؤدي وظيفتها فتدفعه الى حب الجماع الذي يتمثل بالعلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة للذة ولإنجاب الاولاد لديمومة الحياة .

بعد خروج الطفل من رحم امه بساعات قليلة يدفعه دافع الجوع للصراخ طلبا للأكل الذي هو احدى المقومات الرئيسية لنمو جسده كما هو النوم ، لا فرق بين طفل وطفلة .. بعد أيام قليلة يحاول النظر الى كل ما يدور حوله حبا بالمعرفة التي تمثل دافع حب الاستطلاع والتي ترقى به عن باقي المخلوقات ، فالانسان منذ فجر التاريخ كان ولا يزال وسيبقى متعطشا الى العلم والمعرفة بفطرته التي هي الوسيلة لتطوره مقرونة بالعمل والجهد المتواصل ، وهذا ما نلحظه الى ما توصل اليه من اختراعات واكتشافات وأبحاث علمية ولا يزال يطلب المزيد فالرجل والمرأة هما شريكان في هذا التطور حسب الظروف المهيأة لكل منهما كما ان العلم والعمل حليفان أيضا .

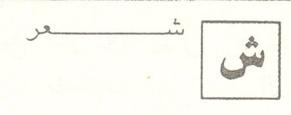
الحواس الخمس هي احدى مميزات الانسان لا فرق بين طفل وطفلة ، اما الضمير والاخلاق والعادات والعاطفة والمحبة هي أشياء يحسها كل منهما ولكنها تنمو وتقوى وتتأثر حسب البيئة التي يعيشان فيها وحسب التربية البيتية .

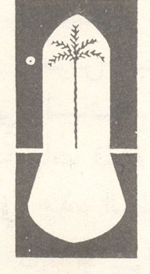
مما تقدم يمكننا ان نستنتج بأن المساواة بين الرجل والمرأة موجودة اصلا مع فارق الوظيفة الجنسية فقط ، هذه المساواة مفروضة وطبيعية دون مراجع قانونية او تشريع لها كما انها ثابتة ثبوت الزمن ، الخروج عنها هو تشويه لوجه الحقيقة وسنة الحياة ، اما القوانين والشرائع التي هي من صنع الرجل بالنسبة للمرأة ما هي الا لغاية في نفسه والتي ترتكز غالبا على حب الذات فيصور النزاع والصراع بين الرجل والمرأة تصويرا مغلوطا ، هذا النزاع والصراع الذي نحن بصدده في هذا البحث سوف نجد بأن العادات والتقاليد والتراث الى غيرها أدوار فعالة في بناء مجتمع سليم او مشوه ، يمكننا ان نقول :خاصة بأن الحضارات الحديثة بدأت تؤثر وتتأثر في المجتمعات المختلفة في اتخاذ الاسلوب الصحيح او

المغلوط بالتقليد ، غير المدروس ، والذي قد يؤدي الى التهور والتدهور حتى الضياع اذا لم يحظ بالصقل والتطبيق الملائم بالنسبة للمجتمعات المغلقة التي قد تعتقد بأن المجتمعات المتطورة تكنولوجيا والتي سبقتها حضاريا هي الاصح والاسمى في تطوير المجتمع .

ولكن ، قبل هذا ، علينا ان ندرس دور الصراع وعلاقة الرجل بالمرأة تاريخيا بشكل مختصر والمراحل التي أثرت على هذه العلاقة اجتماعيا ودينيا ايضا .

تقديم : نعمان حرب





دار سعاد الصباح

سعاد الصباح

فتافيت امرأة





عادات وتقاليد الحارات الشامية القديمة

إلفة الإدلبي

نص المحاضرة التي القتها الأديبة السيدة الفة الادلبي في مكتبة الاسد الوطنية بتاريخ ٥-١٠-١٩٩٢

كان لحاراتنا الشامية القديمة عادات وتقاليد يعمل بها وكأنها قوانين لا يجوز خرقها ، كان أجمل ما في هذه العادات والتقاليد هو التعاطف الإنساني الودي الذي كان يشمل أبناء الحارة كلهم حتى لكأنهم أسرة واحدة . كانوا يفرحون معا ويحزنون معا ، وكثيرا ما كانوا يجتمعون في مضافة أحد وجهاء الحارة التي كانت تعقد عادة في البيت البراني ، كان يجلس فقراؤهم الى جانب أغنيائهم لا يشمخ غنيهم على فقيرهم ، يحلون مشكلات حارتهم قبل أن تصل الى الحكومة ، كانوا يجهزون البيت للفقير ، ويساعدون المنكوب ، والمريض ، والعاطل عن العمل ، ويعطفون على الأرامل والأيتام ، كان بينهم تضامن اجتماعي عفوي تفرضه الشهامة والمروءة والشعور الانساني مع الغير ، ، لاسيما إذا كان هذا الغير جارا فللجار حق على جاره لا يمكن التغاضي عنه . وكان قبضايات الحي او الزكرتية يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن أمن الحارة ، وعن آداب أبنائها وبناتها فيما يختص بالعرض والشرف .

أحب أن اروي لكم حادثة تؤكد هذا التضامن الاجتماعي العفوي الذي كان بين أبناء الحارة الواحدة :

تداعى سقف احدى الغرف في بيتنا الشامي القديم فجاء والدي ببناء من أهل الحارة اسمه عارف الكلاس لإصلاح السقف وطلب منهُ أن يشتري مواد البناء ، فجاء عارف الكلاس في اليوم الثاني وقد اشترى موادا تكفي لإصلاح سقيفة . سأله والدي لم هذا كله ، وأنا كلفتك بإصلاح سقف واحد ؟ أجابه البناء : نسيت والله أن آخذ رأيك ، ولكني على يقين أنك لا تعارض ، سقف غرفة جارنا فلان ، أوشك على الهبوط ، وهو مريض وعاطل عن العمل كما تعلم ، فالكلفة منك يا أفندي والشغل علي ، فشكره والدي لأنه أتاح له مساعدة احد الجيران .

إذا تصادف ان في الحارة عرسا وقد وزعت الدعوات ولم يبق لموعد العرس إلا أيام قلائل فتوفي احد الجيران ،كان يؤجل العرس ، أربعين يوما لأنه لايجوز أن يكون في الحارة الواحدة بيت فيه عزاء وحزن ، وبيت آخر فيه فرح ومرح ، وهذا ما يؤكده أيضا أن الجار كان بمثابة أقرب الأقرباء .

وأنا والله أجل عرسي أربعين يوما لأنه توفي مصطفى باشا العابد قبل العرس بثلاثة أيام وكان يسكن في الحي الذي يسكن فيه أهل

العريس ٠

إذا حدث سوء تفاهم بين أسرتين أدى الى القيطعة ثم وقعت حادثة وفاة عند أحد الطرفين كان يتناسى كل شيء وتأتي الأسرة المقاطعة للتعزية ، وكأن شيئا لم يكن وتعود المياه الى مجاريها ٠

كان أقرب الجيران لبيت المتوفي يفتح بيته لاستقبال المعزين من الرجال ويترك بيت المتوفي لاستقبال المعزيات من النساء ، كذلك في الافراح إذا كان بيت العريس صغيرا لا يتسع لإقامة العرس كان يستعير بيت أحد جيرانه ليقام فيه العرس بهذه المناسبة وتأييدا لكلامي هذه أحب أن أروي لكم حادثة قرأتها في كتاب نفيس جدا صدر حديثا ألفه سفيرنا السابق الأستاذ جمال الفرا، اسم الكتاب (الله يعمرك يا حي الوردات) يحدثنا المؤلف عن حارة (الطالع)، في حي الوردات ، وهي حارة المؤلف نفسه ، حديثا ممتعا يصف فيه عادات وتقاليد حاراتنا الشامية القديمة منذ مطلع القرن العشرين حتى الاحتلال الفرنسي لبلادنا ، ومن خلال الحديث عن هذه الحارة الصغيرة يروي لنا المؤلف أحداثا تاريخية هامة او بالاحرى تاريخ ما أُهمله التاريخ في تلك الفترة اما الحادثة فإليكم هي :

خطب شاب فقير بياع عرق سوس اسمه عمر من حي الطالع فتاة يتيمة من حارته اسمها سعاد ، وامتدت الخطبة سنة كاملة ، فجاءت أم العروس الى بيت العريس وقالت لأمه :

- يا حاجة الى متى ننتظر ؟ الكتاب مكتوب وقد مضى على الخطبة سنة كاملة ، قالت أم العريس :

- بودي والله أن أقيم عرسا لعمر وسعاد يقوم له حي الوردات ، ويقعد ، ولكن ما باليد حيلة ، بيتنا صغير ، والحالة ضيقة ، وعايشين بالسترة ، أجابتها ام العروس :

- ولا يهمك يا حاجة مالنا وللأعراس ، لا يأتي من ورائها الا وجع الراس ، والقيل والقال ، نخليها أهلية بمحلية ٠

بلغ هذا الأمر أكبر غني في حارة الطالع هو درويش آغا القادري فأخذته النخوة ، فما كان منه الا أن أوفد زوجه ام أيمن لتقول لأم العريس :

- يا حاجة نحن جيران والجيران مثل الأهل ، وابناء حارة واحدة ، وعمر لدينا بمعزة ابننا أيمن، أقسم الاغا بالله أن يتم عرس عمر في بيته، وعلى حسابه كما لو كان عمر ولده وفعلا أقام درويش آغا القادري عرسا رائعا للفقيرين اليتيمين عمر وسعاد حتى أنه عاش بأكبر فرقة موسيقية كانت تحيي الأعراس في دمشق هي فرقة بنات مكنو ٠ وكان سكان حي الوردات قد سمعوا كثيرا عن هذه الفرقة دون أن يروها ، فأتاح لهم درويش اغا القادري رؤيتها بمناسبة عرس عمر العرقسوسي ٠

ما أروع هذا التعاطف الودي الانساني وهذا التواضع تأتي زوجة أغنى واحد في الحارة الى بيت امرأة فقيرة لتقول لها نحن أهل وأبناء حارة واحدة ، وابنك عمر بسعر ابننا ايمن ٠ انتهى حديث الاستاذ جمال الفرا ٠

كانت العادة ان تقدم هدايا للعروسين تسمى النقوط ، أهل العروس كانوا يقدمون لابنتهم هدايا من الحلي الذهبية ، وأواني صينية ، او سجادة ، ويسمون هذه الاشياء (عقدة) يعني إذا احتاجت المرأة الى شيء من المال تستطيع ان تبيع بعض هذه الاشياء التي تخصها وهي لا تفقد من قيمتها الا شيئا زهيدا أما أهل العريس فيقدمون لإبنهم اشياء كمالية للبيت كالأواني الفضية والصينية ، والسجاد ايضا كل حسب قدرته ، اما أهل الحارة فيقدمون لأبي العريس وهو الذي يقيم العرس أشياء عينية ، رز، سكر ، سمن مزيت ، بن ، وأحيانا خاروف لأنهم يدركون أن أبا العريس لديه مصاريف كثيرة عدا عن وليمة العرس يضطر أن يقيم

وليمتين في كل يوم وليمة على الغداء وأخرى على العشاء ، لمدة سبعة أيام لأن أهل العروس يزورون عند ابنتهم سبعة أيام كاملة كذلك من أهل العريس لتقبل التهاني بالعرس .

هذا كله نوع من التضامن الاجتماعي في أكثر ما تجلى إبان الثورة السورية الكبرى ، وقد ثبت تاريخيا ان الثورة السورية لم يأتها أي دعم من الخارج ، قام بها السوريون وحدهم ، وكان عدد سكان سوريا عام ١٩٢٥ اي حين قامت الثورة السورية لا يتجاوز الثلاثة ملايين نسمة وقد استطاعت هذه الدولة الصغيرة الفقيرة بفضل تضحية أبنائها وشجاعتهم ان تصمد أمام فرنسا الدولة الكبرى سنتين كاملتين .

من كان يعيل اسر هؤلاء الثوار ؟؟ كان يعيلهم أبناء حاراتهم فكان الثائر يلتحق بالثورة وهو مطمئن على أسرته ، أما إذا التحق بالثورة عدد كبير من ابناء حارة واحدة ، كانت هذه الحارة فقيرة لا تستطيع أن تقدم العون لأسر كثيرة كانت تجمع الاعانات من أحياء أخرى وبخاصة من التجار وترسل الى تلك الأسر والحق يقال قد بذل التجار في سوريا كثيرا من أموالهم في سبيل الثورة السورية .

ورد في كتاب (دمشق أيام زمان) للأديب عادل أبو شنب مايلي :

كانت أمور تجري في حارات دمشق وفق تقاليد قديمة متوارثة كانت وكأنها قوانين غير مكتوبة ، أذكر كيف كانت أسر في حارتنا تفقد معيلها بالموت غالبا ، فكانت هذه الاسر أو تلك تتلقى من المحسنين في الحارة معونات لا حصر لها غالبا دون أن يعلن المحسن عن نفسه ، كان يقرع الباب رجل ويقول للمرأة الثكلى بموت معيل أسرتها :

- افتحي لي طريق يا اختي (جايبلكن ،عدل طحين ، او تنكة سمنة ، او تنكة زيت ، أو كيس رز .. وكان الرجل يدخل ما يحمل ويضعه في صحن الدار وينصرف .

بهذا التقليد عاشت اسر كثيرة مفجوعة في حاراتنا الدمشقية ، كانت تصلها مساعدات يومية تقريبا بما في ذلك مبالغ نقدية، كانت ترسل لها مع نساء او بواسطة رجال يقرعون الباب ويمنحون دون ان يعلنوا أسماء المحسنين، وكانت مقولة ما حدا بموت من الجوع مطبقة في حارتنا بالفعل .

انتهى كلام الاستاذ عادل ابو شنب .

كان اذا جاء الى الحارة جار جديد اشترى فيها بيتا ، او استأجر كان يرسل اليه الطعام من قبل اقرب جيرانه لمدة ثلاثة أيام لأن صاحبة البيت مشغولة بتنظيف البيت وترتيبه ليس لديها الوقت الكافي لاعداد الطعام ، كانوا يفعلون ذلك وهم لايعرفون ذلك الجار الجديد بعد ولكنه سيصبح جارا لهم ، وله عليهم حق الجوار وكان هو يتقبل ما أرسل اليه من أشخاص لا يعرفهم بعد لأنها عادة متبعة ومعروفة . وبعد ثلاثة أيام من مجيئه الى الحارة يبدأ الجيران بزيارته للتعرف عليه ، الرجال يزورونه في الليل والنساء في النهار .

إذا شعرت إحدى نساء الحارة ان جارة لها فوجئت بضيوف قرب ميعاد الغداء فكانت ترفدها حالا بسكبة من عندها أي تبعث اليها بشيء من الطعام فربما كانت جارتها غير مستعدة لتهيئة مائدة للضيوف . وكثيرا ما كان الجيران يتبادلون السكب في شهر رمضان لأن الصائم يلذ له ان يفاجأ بأكلة غير منتظرة ، والطعام الذي يهدى يكون غالبا من الانواع التي يحتاج اعدادها الى جهد وبراعة في الطبخ ، كأكلة القبوات والمشمشمية او بسماشكات ، او أنواع الكبة .

كان ابن الحارة يدافع عن ابن حارته ويحميه من اي سوء وكأنه أخ له ، في كتاب عاشها كلها للدكتور كاظم الداغستاني وردت هذه الحادثة :

أيام الثورة السورية ، وفي ليلة حالكة السواد قارصة البرد مر من حارة السكة في حي الصالحية أربعة ثوار كانت مهمتهم اختطاف طبيب من حي آخر . كان أبى ان يعمل مع المجاهدين في مواقعهم الجديدة ، ولما لم يجدوا الطبيب في داره عادوا عن طريق حارة السكة ايضا فاقترح احدهم كي لايعودوا خايبين ان يختطفوا ابن الداغستاني عساه يفتدى نفسه بما يستطيع ان يدفعه من المال ، فعارض هذا الاقتراح برو النيني احد هؤلاء الثوار ، وابن حارة السكة اشد المعارضة ولكن رفقاءه اصروا على تنفيذ ما عزموا عليه وجاءوا بسلم من احد البيوت وألقوه على جدار حديقة بيت الداغستاني وهم أحدهم بتسلقه فما كان من برو النيني الا ان استل خنجره الجلاني بيده اليمنى ، وأشهر مسدسه بيده اليسرى وصاح برفاقه بصوت سمعه بعض من كانت نوافذ بيوتهم تطل على الطريق ونقلوا الحديث في اليوم الثاني الى بيت الداغستاني ، ليس هذا من المهمة التي عهدت الينا ، وبيت الداغستاني هم أبناء حارتي ، وأخوتي في الرضاع وأنا أعرف وانتم تعرفون انهم اعطوا من مالهم للثورة ما فوق طاقتهم ، فمن شاء ان تولول عليه أمه هذه الليلة فليقترب من هذا السلم وليتخط هذا الجدار إذا استطاع ، ورأى رفاق برو النيني ما حزم عليه أمره ، وقد عرفوه واختبروه إذا قال فعل ، فلم ينبس أحدهم ببنت شفة ، فاقترب هو من السلم فألقاه ارضا ، وبقي واقفا شاهرا سلاحه حتى مشوا فمشى وراءهم ، انتهى كلام الدكتور داغستاني .

حتى اللص لا يسرق أبناء حارته ، يسرق من حارة أخرى ،

اعتاد الشباب ان يتحرشوا أحيانا بالصبايا يتبعونهن في الطرقات الخالية يسمعونهن كلمات غزلية وكثيرا ما كانوا يفتلعون الزحام كي يلمسونهن أو يقرصونهن ، لكن بنت الحارة كان لها حرمة خاصة عند أبناء حارتها فلا يمكن ان يغازلها واحد منهم لأنها بمثابة اخته تماما ، ولكن لا نستطيع ان نجزم بمثل هذه الامور قد يعجب ابن الجيران ببنت الجيران ،ويرغب في مغازلتها وقد تستجيب هي له ايضا ، ولكن اذا حدث هذا كان يحدث سرا بحيث لا يستطيع احد اكتشافه اما اذا اكتشف فويل للاثنين .

بهذه المناسبة أحب أن أروي لكم هذه الحادثة الطريفة التي جرت في حارة السكة .

أنا بنت حارة السكة ، تزوجت في حي المهاجرين فكنت حين آتي لزيارة أهلي آخذ الترام النازل من المهاجرين وكنت انزل من الترام عندما يصل الى موقف قرب مدخل حارة السكة . بعد هذا الموقف بقليل كان يقف بائع درا اسمه محمد الطراب وكان شابا مرحا أنيس الوجه ولكن المسكين كان قد فقد ساقه في حادث سيارة ، وكان يضع حلة الدرا بين دكان الحمصاني سعدو ازيزيه ودكان الخضري مجمجها . وبعد قليل تأتي دكان السمان ابو صادق الطرودي وكان محمد الطراب هذا يقف امام حلة الذرا واضعا عكازه تحت ابطه يقلب عرانيس الذرا بملقط ويغازل المارات بندائه على الذرا إذا مرت سيدة ذات قوام جميل كان ينادي محمد الطراب : ريته يسلم لي هالطول يا ذرا ، بعد قليل تمر سيدة قصيرة ولكنها جميلة ،من الحجاب في أواخر الثلاثينات بدأ يشف فتظهر من خلاله معالم الوجه واضحة ينادي محمد الطراب : والله حلوة ومكبسة ها الذرا ، بعد قليل تمر فتاة طلعتها حديثة عهد بالحجاب : ينادي طاب أوانك يا ذرا ، بعد قليل تمرسيدة جميلة ولكنها متقدمة قليلا بالسن ينادي محمد الطراب تعا ودع . اما اذا مرت سيدة شقراء كان ينادي شعرك شباشيل الذهب يا ذرا ، ثم تمر سيدة سمراء وجميلة فلا يعفيها محمد الطراب من غزله ينادي والله سمرا ومزكاية ها الذرا ، والذرا عمرها ما كانت سمرا

كان أصحاب الدكاكين كلما نادى محمد الطراب يتركون الميزان والزبائن ويمدون رؤوسهم من دكاكينهم ليروا هل ينطبق النداء على السيدة المارة ام لا ، حتى السمان ابو صادق الطرودي الرجل المعدل المتزن كان ايضا يترك عمله ويمد رأسه من دكانه ويعاين السيدة المارة بنظرات فاحصة فإذا وجد ان النداء جاء في محله هز رأسه علامة رضا ٠ اما عندما كنت أمر أنا كان يصمت محمد الطراب عن النداء ولو مرت أثناء مروري سيدة تستحق ان ينادي لها يظل صامتا حتى أدخل بيتنا ، وكان لا يبعد الا قليلا عن حلة الدرا خشية ان يقع التباس فالقضية حساسة جدا ، أنا بنت الحارة بنت فلان واخت فلان وفلان ولو سكنت في حي آخر أظل متمتعة بهذا الامتياز

ذات مرة أتيت كعادتي لأزور أهلي ، نزلت من الترام ، وكنت أتي من جهة الغرب ووجه محمد الطراب متجه نحو الشرق فلا يراني حتى أمر من أمامه ٠ وإذا إحدى صديقاتي تبرز من الحارة التي كانت على كتف دكان الحمصاني سعدو ازيزية وتمر من امام حلة الدرا ، وتقف عند موقف الترام قرب محمد الطراب تنتظر الترام الصاعد الى المهاجرين ، وقفت أنا متوارية وراء عمود الكهرباء بحيث لا تراني هي ولا يراني محمد الطراب أسمع ماذا سينادي لها وكنت حريصة جدا على سماع ذلك ، فلو رآني محمد الطراب لصمت عن النداء ، وكانت صديقتي هذه من أجمل جميلات دمشق ، القوام الفارع المتناسب ، الشعر الأشقر ، العينان الزرقاوان ، البشرة الموردة ، كان فيها مقومات الجمال كلها ، وكانت ترتدي على ما أذكر معطفا ابيض٠ وقد وضعت على وجهها نقابا كحليا شفافا جدا راح ينشر ظلالا بنفسجية فاتحة على شعرها الاشقر وبشرتها الموردة فيزيد جمالها جمالا ٠

أخذ محمد الطراب ينظر اليها صامتا ذاهلا مأخوذا قد بدت في عينيه ابتهالات كأنه صوفي يتعبد في محراب كان الخضري مجمجها يمد رأسه من الدكان ويقول محمد ماتنادي ولك شو صارلك ، وكان في صوته خنة ؟؟ فمن ارتج عليه لم يعد يجد صفة تليق بهذا الجمال الصارخ الواقف الى جانبه الى ان وصل الترام وهمت السيدة بالصعود اليه عندئذ اسعف الله محمد الطراب وصرخ بكل مالديه من قدرة على الصراخ: ريتك تقبريني يا درا ٠٠

مضى على هذا الحادث أكثر من خمسين عاما والسيدة التي أحدثكم عنها موجودة بيننا الآن وهي تتذكر وتضحك لأنها سمعت النداء وعرفت أنها هي المعنية به ٠ ولكن لن أدلكم عليها

ان ما ذكرته عن عادات وتقاليد الحارات الشامية القديمة اختصر على التعاطف الودي الانساني ، والتضامن الاجتماعي الذي كان يشمل أبناء الحارة الواحدة ٠ ولكن كان هناك ايضا عادات وتقاليد كثيرة لا يتسع الوقت لذكرها كالعادات المتبادلة في الاعياد وشهر رمضان والمولد النبوي ، وفي مناسبات الحج والولادة والختان والختمة والحمامات والى اخرة ٠

أعتقد أن ما ذكرته لكم كان ايجابيا كله، ولكن كان هناك أيضا بعض السلبيات ، ان ساكن الحارة لا يشعر انه حر بتصرفاته ، كان يشعر دائما أنه مراقب من أهل الحارة جميعهم ٠

مثلا : فلانة قامت البارحة لأداء صلاة الفجر طلت من الشباك رأت جارها أبا فلان يعود الى بيته مع طلوع الضوء سكران حيط يصده وحيط يرده ، فلانة تخرج من بيتها في كل يوم ، والبارحة خرجت مرتين الى أين تذهب ؟؟ اليس لديها في بيتها واجبات تقوم بها ؟؟ البارحة زار بيت فلان جماعة مزنطرين منظرهم من الشارع يقشعر منه البدن ما علاقة جيراننا المحشومين الأوادم بهؤلاء المزنطرين ، تقول احدى الجارات لجارتها ربما

سيخطب ابنهم بنت مزنطرة يأتي بها الى حارتنا فتعلم بناتنا الزنطرة •والزنطرة هي ارتداء الملابس غير المحتشمة تجيبها جارتها كش بره وبعيد لا أحد يستطيع أن يأتينا بالخبر الصحيح الا الداية ام ابراهيم سنطلب منها ان تزورهم وتستنزلهم بطرقها الخاصة حتى تعرف كل شيء ، وتعود ام ابراهيم بالخبر اليقين وهو أن هؤلاء الجيران المحشومين الأوادم لهم أقرباء يسكنون في تركيا وقد جاؤوا لزيارة دمشق وهم يقومون الآن بزيارة اقربائهم وبالجملة جيراننا ويرتاح بال أهل الحارة•

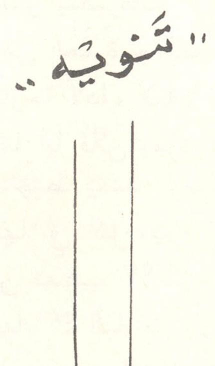
ومن السلبيات ايضا (الكونة) ومعنى الكونه ان يقوم فتيان الحي أي المراهقون بمهاجمة فتيان حي آخر فيقذفونهم بالحجارة والمقاليع والنقفات ، ومن يهرب من المعركة يعتبر مهزوما وقد يصاب اكثرهم بجراح قد يكون بعضها خطرا

لا أدري كيف كان يقبل عقلاء الحي بمثل هذا التصرف الا إذا اعتبروا ان الكونة نوعا من الرياضة تعلم الفتيان الشجاعة والكر والفر ، ولذة الانتصار وذل الهزيمة •

يبدو أننا كلما أوغلنا في هذه الحضارة الجديدة الوافدة الى بلادنا شعرنا بفداحة ما فقدنا فيزداد حنيننا الى الماضي من أجل هذا كله راحت تصدر في الاونة الاخيرة كتب كثيرة عن دمشق القديمة وعن العادات والتقاليد السائدة آنذاك والتي تعبر عن الشعور الانساني تجاه الغير وعن الشهامة والنخوة والمروءة ، تلك الصفات الرائعة التي كانت تسود مجتعنا الدمشقي القديم • أذكر منها كتاب عاشها كلها للدكتور كاظم الداغستاني ، يا مال الشام للسيدة سهام ترجمان ، دمشق في مطلع القرن العشرين للعلاف ، حديث دمشقي للاستاذ نجاة قصاب حسن ، دمشق أيام زمان للأستاذ عادل ابو شنب ، مقتطفات من تاريخ دمشق للاستاذ هاني الخير •

هذا عدا عن الروايات والقصص والمسلسلات التي تدور أحداثها أيام دمشق الماضي كروايات خيري الذهبي وكوليت خوري وعادل ابو شنب وسلمى الحفار الكزبري وزكريا تامر ، الفة الادلبي وغيرهم وغيرهم عسانا اذا قرأنا هذه الكتب ان نستعيد ولو بعض هذه الصفات مما تتلاءم مع الحضارة الحديثة التي نعيشها الآن وقد اندفعنا في تبنيها بلا هوادة والسلام عليكم •

إلفة الادلبي



تنوه اسرة التحرير الى النقص الحاصل في اللقاء الذي جرى مع الدكتور محمد عبد اللطيف الفرفور والذي أجرته السيدة وداد قباني حول " المرأة " في عدد الثقافة الشهرية تشرين الثاني ١٩٩٢ • الى ان سماحة الدكتور محمد عبد اللطيف الفرفور قد حصل على الدكتوراه في الجامعة الأزهرية بدرجة الشرف • وهذه الفقرة يجب ان تورد بعد فقرة (حصل على الماجستير في الشريعة والقانون •

نأسف لسماحة الدكتور محمد عبد اللطيف الفرفور عن هذا النقص غير المتعمد •

حوْل الحَقيقة الفلسفية

د. هاني يحيى نصري

ان كل ما تريد ان تحققه هذه المحاضرة بأقل ازعاج وبأقصر وقت ممكن هو : محاولة رد الاعتبار للفكر الحر ، الذي هو أهم من كل علم أو أدب ، ولا حرية لأي فكر لا يهدف الحق ، ولا يسير في درب الحقيقة ، لا حرية لأي فكر يغلق باب حب الحقيقة باب التفلسف .

الى متى سيظل هذا الشرق محروما من مستوى قائم بذاته ، مستوى المعرفة الفلسفية ؟ الى متى سيظل هذا الشرق محروما من صنع تصور كماله الخاص به

الدافع نحو الكمال وراء التفلسف :

ان طبيعة الحب مرتبطة بالتكامل عند ا لانسان ، ولا يشترط بالتكامل الكمال ، اذ متى شعر الانسان بشيء من التكامل خرج من ذاته نحو الموضوعات الاخرى وبحث عن مايزيد من تكامله نحو الكمال ، وبمثل هذا الخروج يتحقق الاختبار بناء على مايحب او ما لايحب الشخص ، وطبعا ، تتعدد أهداف الناس وتختلف بقدر اختلافات مضامينهم اللانهائية، فهناك من يظن تكامل شخصيته في ابسط تحققاتها في الجنس الاخر فتظهر لديه ميول الحب الشهوي او العذري ، وآخر يظن في تكامل شخصيته بمزيد من تحقيق القوة والسيطرة فيظهر هوى السلطة عند البعض وهوى التقنية عند الاخرين ، وفي الحالة الاولى نلمس السيطرة على الناس وفي الثانية محاولة السيطرة على الطبيعة .

رغبة التكامل عند الانسان اذا وراء ما يحب ، وهناك بعض النفوس التواقة الى ان تتكامل بالكمال المطلق ، ومثل هذه النفوس تندفع نحو الاطلاق بطريقتين اما : ذوقي كما عند المتصوفه ، او عقلي كما عند محبي الحكمة ، وسنقتصر في هذه المحاضرة على هذا الصنف الثاني من الباحثين عن الكمال عشاق الحكمة ، وهم على قلتهم يشكلون كثرة نوعية هي أساس معيار حضارة كل مجتمع ، وما قلتكم في هذا المكان الا دليلا على مدى ما نحن فيه . ذلك لأن هناك ظن شائع أننا لسنا بحاجة الى الفلسفة ، طالما لا يقدم هناك ظن شائع أننا أكثر مما يقدم لنا مشكلات ، ولا يعطنا نفعا بأي قريب عاجل كذلك لم تقدم لنا فروع الفلسفة من أخلاق ومنطق واستاطيقا أي زيادة تذكر عما صدر عن مؤسسي هذه المعارف ، بل يكاد الامر يتجه نحو الاسوأ لا الافضل ، اذ نشهد اليوم تراجع الاخلاق

رغم غزارة ماكتب حولها . واتكال المنطق أكثر فأكثر على الرياضيات وتبرم العلوم الانسانية ، من علم اجتماع ونفس بالتفلسف واندفاعهما الى أحضان القصور الوضعي والاحصائيات الرقمية وكل هذا يحتاج الى دقة عبارة وتعبير مما ربط التفلسف دوما باللغة .

الفلسفة والأدب :

ونظرا لاستحواذ الكتابة الادبية على معظم ما يكتب باللغة العربية ، جاء امكان ترجمة نتاج فكرنا المعاصر الى أية لغة أخرى في معانيه ، كثير اللغو غير القابل لأن يوضع بلسان آخر .

ان محك خصوبة مضامين ، أية كتابة هو امكان ترجمتها ، وفي الترجمة تسقط مساحيق نصوص الادباء (وآية ذلك أنا نعجز أحيانا كثيرة عن أن نصف بعض الخواطر التي تخطر لنا ، والعواطف التي تجيش في صدورنا ، بل نعجز أن ننقل خواطر وآراء يراها الاوروبيون سهلة يسيرة ، بل مبتذلة ، وتضيق عنها ألفاظنا وأساليبنا ، لأنها مقيدة بطائفة من القيود اللغوية والنحوية الثقيلة ، التي لم نتفق بعد على طريق للتخلص منها ، وآية ذلك أيضا أننا نضطر في أحاديثنا وفي كتاباتنا الى ان نستعمل جملا فرنسية او انكليزية او ألمانية او الى أن نستعير جملا من لغتنا العربية العامية) .

مما يدفع المتحدث الى احضان العامية وصعوبة التعامل مع لهجاتها المختلفة باختلاف العقليات والاعتقادات التي شكلت هذا المنطوق المتنوع (العامي) وظلت محتفظة بقوة وغموض رمزيتها فيه مشعرة حاملها بمعرفة لا تكفي للتعبير عنه ، معرفة أشبه ماتكون بمعرفة الحالم فإذا أراد أي تعبير جاء ركيكا غير قادر على كشف كل رموزه ، فإذا لجأ من يريد ان يكشف الى اللغة الأم الفصحى ، واجهه (سيبويه) الفارس المستعرب أكثر من كل العرب .

هل على العقل ان يظل اسير النحو والصرف ؟ وهو العالمي الكلي الذي لا يأبه بأي قيد اقليمي نحوي او لغوي .

الفلسفة أيها السيدات والسادة لا تمت الى اية رومانسية ثقافية او لغوية ، وذات طبيعة شكلية ويقينية تختلف عن يقينية السفسطات الادبية التي لا يهمها الا الشكلة والضمة . فإذا تجاوزنا هذا الامر نستطيع ان نتساءل عن أهم العوامل المؤثرة في التفلسف وهي اختلاف طبيعة اليقين الفلسفي عن يقين مستويات المعرفة الانسانية الاخرى .

ليس في الفلسفة معرفة محددة تحظى باتفاق كل الاراء حولها وهذا الاختلاف عند من يرصدونه دليلا على تراجع الفلسفة إزاء العلم . فالطب مثلا تقدم كثيرا عن مؤسسه ابيقراط ، فهل تقدمت الفلسفة عن سقراط الذي استخرج هذه المعرفة من أحضان الادب ؟ ولا زال على كل باحث في الفلسفة ان يدخل مع الادباء في نفس الصراع السقراطي مع السفسطائيين أدباء الاغريق. ويبدو لي ان لكل سفسطائي أو أديب حديقته الخاصة او جنته التي بناها من عالم خياله والتي لا يسمح لأحد بدخول هذا الاقطاع ، ويكتفي أن يقدم من ثمراته ما يشاء للاخرين . فإذا جاءت الثمار يانعة مترهلة اكثر من اللزوم ادعى ان اصالة اللغة تستدعي ذلك . واذا جاءت فجة سمي ذلك حداثة . وبين الاثنتين يدعى الادباء من خلال تمسكهم بصرامة قواعد اللغة ان اكبر جناية ترتكب ضد الامة هي الخروج عن هذه القواعد النحوية . والحق ان في الادب الحقيقي إيجاز في التعبير وجمال ويبرز هذا الايجاز وذاك الجمال أكثر ما يبرز بلغة الشعر ، وفي الفلسفة ايجاز دون جمال ، في ما يشبه المعادلات الفكرية الجافة ، مما يجعل مصطلحات الفلسفة غير مبررة الا بالفكر . والقارىء او

السامع الذي اعتاد القراءة الادبية الدقيقة الاحكام لقواعد اللغة والسهلة الجميلة ، ولم يألف مصطلحات الفلسفة يلقي باللوم فورا على أسلوب الكاتب في الفلسفة ، من منطلق ما أشاعه الادباء من ان لكل نص مكتوب مبنى ومعنى . في الوقت الذي يضحي الادب بالمعنى دوما من اجل المبنى لان الاهم فيه رشاقة الكلمة .

العوامل المؤثرة في التفلسف :

في محاولة الاجابة على التساؤلات السابقة يرصد الدارس اختلاف طبيعة اليقين الفلسفي عن اليقين الادبي واليقين العلمي ، فمتى اتفق العلماء على يقين ظنوه قطعيا ، وكذلك الأدباء الى ان يأتي الفيلسوف ويبرز جوانب اللاقطعية فيه ، عبر تلك النظرة الشمولية التي تسم كل فكر تأملي . ذلك ان في صلب التفلسف عدم التسليم بالمسلمات ، وإعادة النظر دوما بالمبادىء الاولى . لذلك نجد تغير اليقين العلمي نحو الافضل في كل فكر اكاديمي يسمح للتفلسف ان يوجهه . ونجد تحول اليقين العلمي الى عقيدة دوغماطية في كل اكاديمية تنكر التفلسف ، فيتحجر العلم الى ان يثبت خطل تطبيق احدى نظرياته فيتغير كلية . وهذا هو الفرق بين العالم الثالث في انتظاره للتغير العلمي ، والعالم المتقدم في صنع هذا التغير . ان دارسي الفيزياء اليوم مثلا يقولون في العالم الثالث بانهيار الفيزياء الفيموتينية من خلال الاطلالة على البعد الرابع للاجسام الفيزيائية مع الولوج في عالم الذرة ، وتدخل الانسان لأول مرة في مصير حركتها الازلية . ولكننا لو رصدنا ما قاله من صنع نظرية البعد الرابع لوجدنا الامر مختلفا . فأينشتاين لم يتحدث في يوم من الأيام عن انهيار فكر نيوتن يقول : (على اي ملخص ان لا يفترض ان عمل نيوتن القوي والجبار يمكنه ان يختفي تحت جنح هذه النظرية او تلك) * وهو اذ يفعل ذلك ينطلق من منطلق الفيلسوف الذي يعرف مدى الاحتمالية في "نسبيته" واضعا التفلسف فوق محدودية كل يقين . وهكذا يختلف اليقين الفلسفي عن اليقين العلمي والادبي اختلاف الموجه والموجه ، مما يستدعي من العلم دوما العود الى المبادىء الاولى عندما يرصد اي تغير . ومثلها مثل العود من أجل رصد اكبر قدر من المشكلات التي يمكن ان يطرحها الفكر الانساني لتضييق جوانب اللاقطعية . ان التصاق اليقينين بالمثالية الفلسفية هو اساس كل تقدم .

الفلسفة موجودة اذا في كل علم لأن الانسان لا يستطيع ان يتجنب تساؤلاته ، وما فصل الفلسفة عن العلم إلا اول خطوة نحو عدم تقدمه والاكتفاء فقط بالحدود التي وصل اليها.

وصلب الفلسفة التساؤل ، والسؤال المحكم هو الذي يضعنا على درب الحقيقة ، فليست المسألة مسألة تساؤلات لا واعية بل مسألة متابعة التساؤل بدقة جدية ، ولعل الاسئلة الكبرى في الكون والطبيعة والانسان اهم بكثير من الاجابات عليها ، وفي هذا أساس فتح أفق الانسان للفهم ، ولا يمكن ان يتم هذا الفتح بدون أخطار . إذ أن كل انسان للدعة للافكار الجاهزة التي تحكمها الالفة والعادة ، وما تغيير مواقف الناس ما ألفوه الا أكبر تحد للذات وللاخرين ، وفي هذا التحدي تتجلى حرية الفرد اذا مارس هذا التغيير بنفسه لنفسه او انفتح على امكان تلقيه ، لذلك يعد التواصل من أهم مشكلات الفلسفة .

التواصل :

ان اساس الرغبة بالاتصال بالاخرين سواء عبر أعمالهم المكتوبة او عبر الاحتكاك بهم مباشرة قائم على الرغبة في التكامل ، فالانسان يحب ان يكمل ما ينقص ذاته . وهكذا يخطو الانسان

خطواته بالتواصل من اجل التغيير في ذاته اولا ، ثم التأثير بالاخرين اذا وجد عنده فيض كمال يمكن ان يفيدهم فيه .

التغيير اذا اساس الرغبة بالتواصل ولكن هناك امور لا يمكنه تغييرها ، ويعرفها الفيلسوف كما يعرفها من ينكر التفلسف ، وهذه الامور غير القابلة للتغيير يسميها الفلاسفة " المواقف النهائية كالموت مثلا وحقيقة الالم المصاحب لكل لحظة من لحظات الحياة وحقيقة المرض الذي سيواجه كل انسان عاجلا ام اجلا ، من الفرق بين من ينكر التفلسف ومن لا ينكره ، ان الاول يتغاضى عن ذكر هذه المواقف ، وقسرها اليومي الممارس على كل انسان ، ويتناسى الموت ويسدل ستارا على الشعور بالذنب ويتناسى اننا تحت رحمة الحظ والصدفة ، ليواجه فقط المواقف العملية ، ويدعي انه بغنى عن التفلسف . مثل هذا الانسان يرفض أيضا التواصل مع من يطرحون مثل هذه المشكلات الى أن تغزوه المواقف النهائية ، فلايندفع الى التفلسف بل الى لوم الفلسفة لأنها لا تقدم حلولا لها .

وأكثر من ذلك ان كثيرا من الفلاسفة بدئا من سقراط دفعوا حياتهم لمثل اثارتهم لهذه المواقف النهائية بين الناس . فقدموا أروع مثال على رغبتهم بالتواصل الحق مع صميم الواقع الوجودي وحتى لو أثار هذا الواقع من يريدون التغاضي عنه ، فمهدوا الطريق نحو الحكمة بدمائهم ، وكان الشوط الذي قطعوه في وصل كمال نفوسهم بالنفوس التي روضت الكمال ، أساس كل تواصل لاحق سمي حقا بالحضارة .

لا تقدم اذا بدون تواصل كما لا بد من الاتصال بكل أبعاد تلك العبارات ، وحتى أكثر الشعوب شوفونية وانغلاقا لا تستطيع الا ان تنفتح لمعارف الشعوب الاخرى .

واليوم عبر هذا الدافع على التواصل والاتصال بذاك الطلب الملحاح الذي وصل الى حدود الحاجة بكل فرد باقتناء وسائل الاتصال الشخصية ، بدءا من الهاتف والمذياع والتلفاز والفاكس وانتهاء بصحون الاتصال مع الاقمار الصناعية ، وأساس هذا الدافع كما لا يخفى عليكم ايها السادة التفلسف .

ان الطفل والبدائي يخشيان الاتصال خشيتهما لاكتشاف عالم جديد يعارض مافي سكون دعة الذات وركونها الى اشباه الحقائق التي ألفت وتماما كما يخشى الطفل اليوم الاول في المدرسة وعنف الاتصالات مع أقرانه ، تخشى الشعوب المتخلفة نتاج المعرفة القائم على الاتصال .

وتاريخيا لجأت العشائرية نتيجة خوف الاتصال الى تطوير قوانين العصبية وميكانيزمات القرابة التي تتقوقع فيها خوف الاتصال ، وما يجره من اعادة النظر بمسلمات الانانية الفردية التي تحكم تلك الظواهر فأغلقت تلك الشعوب تاريخها لذلك لن تتطور .

لا بد من تبادل شعلة الفكر اذا حتى ندعي التحضر والحضارة وأثناء هذا التبادل لا بد من اعادة النظر بالمسلمات التي ألفناها ، وبعبارة أخرى لا بد من التفلسف ، ذلك ان تقنية الاتصال الطاغية والسريعة اليوم من دون تفلسف في العالم الثالث لن تعني الا التبعية .

فمع الاخرين في مواقف الندية فكرا وفلسفة وعلماء كذلك من عقبات المواقف النهائية ويرتفع الانسان فوق بدائيته وفوق عصبيته وفوق أنانيته .

ان كل ما نفكر فيه وكل ما تصل بنا الجرأة لحد تسجيله هو من أجل الاخرين ، وترتد هذه الغيرية علينا حتى نحك أفكارنا بفكر الاخرين . مما يعني ان للفهم وجودا يجعله ملك الانسانية كلها ، ولا يمكن الولوج الى هذا الوجود القائم بذاته دون تفلسف . لذلك يمكننا ان نقرر ان للفكر كيانا مستقلا هو ملك الكل ، بقدر ما هو ملك كل فرد يتطلع اليه . ويحوي كل

خبرات الانسانية في مجال اطلاعه هذا ٠

هل الفكر كيان مستقل :

ان الفكر بهذا المعنى كيان مستقل عن الافراد الذين شكلوه لذلك يجب ان لا يخضع لفرد إذ يحاول كل ابن شرعي لهذا الفكر ان يسخر كل هذا الكيان من اجل فرض رأيه ٠ وهذا ما حصل بكل الايديولوجيات على المستوى الدوغماطي ، وما حاوله العلم على المستوى الجماعي ، حين حاول اخضاع الطبيعة لارادة الانسان فوجد نفسه اليوم وهويدمرها ٠ لذلك يمكننا ان نقرر الحقيقة الفلسفية التالية هو ان الفكر كيان يجب ان تمتلكه كل الانسانية ، ولزاما على الفلسفة ايضاح هذا المعنى ، والتركيز على استقلالية الفكر ٠ وعدم الركون الى أية كلمة فصل ينجبها تفلسفه ما ، لأن صلب التفلسف استقلال الفكر الانساني ، ولا يمكن ان تصلح فلسفة مهما عظمت لكل زمان ومكان ٠ وما لم ينجب كل زمان فلاسفته سيعقم الفكر ٠ ان على فعل التفلسف فتح آفاق جديدة دوما لحياة لا تستأهل ان يعيشها الانسان لولا قبسات الفكر والمعرفة ٠ وبعبارة أخرى ان الفلسفة عصامية بطبيعتهاووسيلة تجاه من عبثية المعنى حتى ولو كانت فلسفة وجود عبثي ٠ فكيف نعيش حياة فلسفية ؟؟

العيش وفق الفلسفة :

حتى لا تصبح حياتنا عديمة المعنى يجب ان نبني وفق القدرات التي نملك عالمنا الخاص في البحث عن الحقيقة بدءا بالدهشة إزاء كل موقف يومي جديد ، مرورا بالتساؤل عن قدراتنا الشخصية بالتعامل مع هذا الموقف ٠ وبذلك تصبح الفلسفة قرارا يوميا قابلا للتعديل ٠

ولأجل تحقيق هذا الأمر لا بد من العزلة والاتصال ٠ ففي لحظات العزلة على من ينشد العيش في طريق الحكمة ان يوجه فكره نحو موضوع واحد حسب الخصائص التي أشرنا اليها٠ وكلما أشبعه تمحيصا ان يركنه لموقف عزلة آخر وتأمل بينهما يحك نتاج فكره بما قيل في نفس هذا الموضوع ، في بطون الكتب ومع المصادر المرئية والمسموعة ، بل والاخرين من ذوي الاهتمام المشترك ، فالعزلة اذا تستدعي الاتصال والاتصال لا يجدي دون تأمل تفرضه عزله ٠ اذ لا يمكن ان يتشكل فكر فلسفي مع الصلة فقط بأفكار الاخرين دون عودة الى الذات ٠ وكلما اتسعت مناهج البحث عن الحقيقة في اتجاه واحد كلما زادت شمولية الفكر مما يسلح من ينشد حياة فلسفية بامكانات عبور طريق الحكمة عبر رموز تلك المناهج المختلفة سواء من التراث او من المعاصرين ٠

الحياة الفلسفية بهذا المعنى حياة تمثل للحضارة الانسانية وإفراز لها ازاء مشكلات آنية مشخصة ٠ وكل من يقطع اتصاله بسياله الفكر هذه يخسر وجوده كحلقة وصل فيها ، بقدر ما يخسر معقلة اهداف حياته ٠

ان الانسان اذا عاش من اجل الحقيقة عرف كيف يموت ، وهكذا يتمكن الانسان من ان يؤمن الارض الصلبة لوجوده بأن يتحسسها خالية من كل القبليات ٠ شرط ان يعرف ما تتضمنه كل قبلية ، وهكذا يتفتح امامه ما يتضمنه العالم من امكانات لا محدودة شرط ان يؤمن ان افضل مافي الوجود هو الفكر ، وان يظل محبا للحكمة غير مدع انه قد وصل اليها٠ ومن هذا المنطلق لا قيمة في الفلسفة لكل أحكام القيمة ، لذلك لا تحفل الفلسفة بالاراء الذاتية ٠ واذا كان الامر كذلك فلماذا كل هذا التنوع في الفلسفات ؟ وقولنا فلسفات اجابة على السؤال بالتساؤل ، اذ يعني ارتباطها جميعا ، بالتفلسف

خبرات الانسانية في مجال اطلاعه هذا ٠

هل الفكر كيان مستقل :

ان الفكر بهذا المعنى كيان مستقل عن الافراد الذين شكلوه لذلك يجب ان لا يخضع لفرد إذ يحاول كل ابن شرعي لهذا الفكر ان يسخر كل هذا الكيان من اجل فرض رأيه ٠ وهذا ما حصل بكل الايديولوجيات على المستوى الدوغماطي ، وما حاوله العلم على المستوى الجماعي ، حين حاول اخضاع الطبيعة لارادة الانسان فوجد نفسه اليوم وهويدمرها ٠ لذلك يمكننا ان نقرر الحقيقة الفلسفية التالية هو ان الفكر كيان يجب ان تمتلكه كل الانسانية ، ولزاما على الفلسفة أيضاح هذا المعنى ، والتركيز على استقلالية الفكر ٠ وعدم الركون الى أية كلمة فصل ينجبها تفلسف ما ، لأن صلب التفلسف استقلال الفكر الانساني ، ولا يمكن ان تصلح فلسفة مهما عظمت لكل زمان ومكان ٠ وما لم ينجب كل زمان فلاسفته سيعقم الفكر ٠ ان على فعل التفلسف فتح آفاق جديدة دوما لحياة لا تستأهل ان يعيشها الانسان لولا قبسات الفكر والمعرفة ٠ وبعبارة أخرى ان الفلسفة عصامية بطبيعتهاووسيلة تجاه من عبثية المعنى حتى ولو كانت فلسفة وجود عبثي ٠ فكيف نعيش حياة فلسفية ؟؟

العيش وفق الفلسفة :

حتى لا تصبح حياتنا عديمة المعنى يجب ان نبني وفق القدرات التي نملك عالمنا الخاص في البحث عن الحقيقة بدءا بالدهشة إزاء كل موقف يومي جديد ، مرورا بالتساؤل عن قدراتنا الشخصية بالتعامل مع هذا الموقف ٠ وبذلك تصبح الفلسفة قرارا يوميا قابلا للتعديل ٠

ولأجل تحقيق هذا الأمر لا بد من العزلة والاتصال ٠ ففي لحظات العزلة على من ينشد العيش في طريق الحكمة ان يوجه فكره نحو موضوع واحد حسب الخصائص التي أشرنا اليها٠ وكلما أشبعه تمحيصا ان يركنه لموقف عزلة آخر وتأمل بينهما يحك نتاج فكره بما قيل في نفس هذا الموضوع ، في بطون الكتب ومع المصادر المرئية والمسموعة ، بل والاخرين من ذوي الاهتمام المشترك ، فالعزلة اذا تستدعي الاتصال والاتصال لا يجدي دون تأمل تفرضه عزله ٠ اذ لا يمكن ان يتشكل فكر فلسفي مع الصلة فقط بأفكار الاخرين دون عودة الى الذات ٠ وكلما اتسعت مناهج البحث عن الحقيقة في اتجاه واحد كلما زادت شمولية الفكر مما يسلح من ينشد حياة فلسفية بامكانات عبور طريق الحكمة عبر رموز تلك المناهج المختلفة سواء من التراث او من المعاصرين ٠

الحياة الفلسفية بهذا المعنى حياة تمثل للحضارة الانسانية وإفراز لها ازاء مشكلات آنية مشخصة ٠ وكل من يقطع اتصاله بسياله الفكر هذه يخسر وجوده كحلقة وصل فيها ، بقدر ما يخسر معقلة اهداف حياته ٠

ان الانسان اذا عاش من اجل الحقيقة عرف كيف يموت ، وهكذا يتمكن الانسان من ان يؤمن الارض الصلبة لوجوده بأن يتحسسها خالية من كل القبليات ٠ شرط ان يعرف ما تتضمنه كل قبلية ، وهكذا يتفتح امامه ما يتضمنه العالم من امكانات لا محدودة شرط ان يؤمن ان افضل مافي الوجود هو الفكر ، وان يظل محبا للحكمة غير مدع انه قد وصل اليها٠ ومن هذا المنطلق لا قيمة في الفلسفة لكل أحكام القيمة ، لذلك لا تحفل الفلسفة بالاراء الذاتية ٠ واذا كان الامر كذلك فلماذا كل هذا التنوع في الفلسفات ؟ وقولنا فلسفات اجابة على السؤال بالتساؤل ، اذ يعني ارتباطها جميعا ، بالتفلسف

كفعل فكر لا فعل رأي . حتى ان فيلسوفا مثل هيغل قال في تعريفه للفلسفة : (انها الفكر حين يعي ذاته بالتفكير) . فلا مكان للرأي الشخصي في ذلك خلافا لكل ظن . وما عبارة فلسفتي وفلسفتك في الحياة الا اكثر العبارات تضليلا عن معنى التفلسف الحق . فالفلسفة لا يمكن ان تضاف لشخص واحد مهما عظم لأنها طريق الحكمة والكل فيها يسير .. وكل من يقول ان لي فلسفة تختلف عن كل فلسفات الناس السابقة ، يعبر عن رأي ذاتي يشبه من يقول ان لي تراثا انسانيا مخالفا لكل تراث البشر وبالتالي لا انتمي لنوع الانسان .

وبعبارة أخرى ان الفلسفة اولا وقبل كل شيء صلة بالتراث الانساني وهذه الصلة يقوم بها المرشحون لتمثل هذا التراث الانساني أفضل من غيرهم من ابناء الامم ، وهناك الكثير ممن يتمثلون تراث قومهم وهؤلاء مرشحون للتعبير عن هذا التراث بصيغ الادب اكثر من صيغ الفلسفة أما الذين يتمثلون تراث الانسانية كلها فأولئك هم كوزمولوجيين الفكر ، والمرشحون لأن يشكلوا المذاهب الفلسفية ، لنأخذ مثلا على ذلك أفلاطون في تمثله للحضارة المصرية والافكار الفيثاغورية والهيلانية التي انعكست كلها في سياق حواراته الفلسفية ، فارتفع بهذه الحوارات الى حدود الفكر الشمولي لفلك لا زالت قابلة لأن تقرأ ويستفاد منها الى اليوم في كل اللغات وبين كل الأمم .

تمثل التراث الانساني لا يمكن ان يشكله اراء ذاتية .

وفي صيغ هذا التناقض الفاضح بين الرأي الذاتي والرأي الناتج عن التراث الانساني يساء فهم الفلسفة .

فعبر الفكر الانساني في استمراريته مع من يتمثله " دوكسيس " لا دوغما تتطور الفلسفة ، ويتجلى تراثها الفكري بالافراد الذين يمثلون ضمير الانسانية ، ولعل الدوغما او الاعتقادية والتي حاول كثير من الفلاسفة جر الفكر الانساني اليها هي العقبة الاولى التي ينتجها التفلسف ، فتقف في طريقه وبعبارة اخرى ان العقائد الدوغمائية هي السبب الاول في موت كل فكر من جهة وقطع الطريق على الفلسفة حتى لا تنتج بل تتلقي نتاج الاخرين على انه الكلمة الاخيرة في كل فكر وهذا ما تحاول ان ترسخه كل ايديولوجية على حده .

والواقع ان تمثل الفكر الانساني كله والدي سماه هيغل بروح الفكر الانساني يحمل صفة التتابع بين الفلاسفة فلا مكان للاراء الذاتية اذا .

لذلك يجب ان يبرز في كل عصر فلسفة تنبع من التساؤلات المصيرية التي تضعها وتستدعيها المواقف النهائية لكل عصر .

واليوم يبدو لي ان الموقف النهائي الذي هو في صلب التساؤل المصيري حول مصير الانسان الذي عبث به العلم فأفسد الجو والطبيعة وعبثت به الايديولوجيات فأفسدت الامم وقسمتها ، هذا الموقف النهائي اليوم يتمثل بتساؤل اساس يطرح على كل انسان في التسعينات من هذا القرن حول مصير البشرية ازاء التلوث وازاء ما كان يظن انه يقين علمي في كل الحقول .

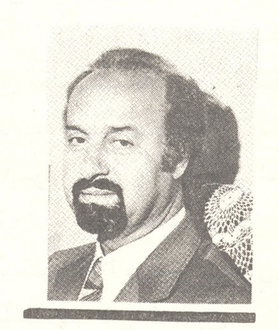
فلسفة هذه الحقبة ستكون إذا فلسفة حول مصير الانسان لا يمكنها ان تنبع من رأي ذاتي حول التلوث او فشل الطب في تجاوز مرحلة ما بعد البنسلين او غيرها من مشكلات العلم او الفلسفة بل تنبع من تتبع الاراء الفلسفية في التراث الانساني كله التي عالجته مشكلة المصير ومنها ستبرز تساؤلات التفلسف الان من منطلق ان في كل حقل من حقول المعرفة الانسانية فكر ولكن الفلسفة كلها فكر ، فإذا كان في الطب فكر وفي الفن الفكر وفي كل علم فكر فان الفلسفة هي الفكر بذاته الذي يسمح بتعديل تلك الاراء في فكر العلم وفكر الفن وفكر العقيدة .

وأخيرا لقد قرأنا وسمعنا ، ولا زلنا نعاني من خصوم الفلسفة في ادعائهم انها ترف فكري او أنها هرطقة فكر محدود ٠ وهم في كل هذا لم ينكروا عنها في أشد خصومتهم لها صفة الفكر٠

فيا مرحبا في الفكر بارستقراطيته التي تغنينا عن كل عامية عمومية لا تريد ان ترى من الاشياء الا مردودها ٠ والواقع ان من يتمنطق حقا لا يمكنه ان يتزندق لأنه من ينشد وجه الحق لا يمكنه ان يتنكر للحق ، أليس الحق هو الله ٠

وهكذا يمكن بل يجب ان توضع الفلسفة ازاء كل مستويات المعرفة الانسانية في حوار يحمل روح التراث الانساني مع هذه المستويات ، ويكاد يكون ضرورة تواجد الفلسفة في كل مستوى من مستويات المعرفة الانسانية أسطع دليل على تقدم هذه المستويات وجعلها أداة للمدنية لا سلاحا للتدمير قصير النظر في استهلاك موارد الطبيعة وتلويثها ، ان الوجود الانساني لا يمكنه ان يكون وجودا مدنيا حقا بدون تفلسف ٠ ولدينا دليل ساطع على ان الشعوب المتخلفة هي اكثر الشعوب انكارا لهذا المستوى من المعرفة الانسانية تلهث وراء التقنية التي لا يمكن ان يصيغها علم بدون تفلسف راكضة وراء نتاج الفكر مهملة ركائزه الاساسية لذلك لا تستغني عن عبارة لحاق بالمدنية وكذلك ستظل مالم تخرج من قبليات تراثها صفة الفلسفة كإهانة ٠

د ٠ هاني يحيى نصري



فاضل السّباعي

* من مواليد حلب ، العام ١٩٢٩ .

* هوِيَ المُطالعة صغيراً ، وعشق الكلمة المكتوبة ، وآمن منذ نعومة أظفاره بأنّ **الأدب قادرٌ على أن يغيّر النّفس والعالم** .

* درس الحقوق بجامعة القاهرة .

* عمِلَ مُحامياً بحلب ، ومُدرّساً ، ثمّ موظّفاً في وزارة الشّؤون الاجتماعية والعمل ... وطلب إحالته على التّقاعد في العام ١٩٨٢ وهو بدمشق مدير في وزارة التعليم العالي .

* طبع كتابه الأوّل **الشّوق واللقاء** في العام ١٩٥٨ بحلب . ثمّ تلاحقتْ كُتُبُه تصدُر عن بيروت ، والقاهرة ... وذلكَ قبل أن يُؤسّس دار إشبيلية بدمشق ، لتنهض بنشر أعماله المتكاملة .



من تُراث معروف الأرناؤوط

طارق بن زياد

رواية تاريخية اجتماعية

بقلم : عبد اللطيف الأرناؤوط

بعد أن أصدر معروف الأرناؤوط روايته (سيد قريش) و (عمر بن الخطاب) التي لم يتممها ، تحول الى كتابة رواية عن تاريخ العرب في افريقية والاندلس زمن الفتوح أسماها " طارق بن زياد " فأصدر الجزء الأول منها ولم يتم جزأها الثاني، فقد تحول الى إصدار روايته " فاطمة البتول " وقد قسم الجزء الاول من طارق بن زياد الى قسمين : عرض في القسم الاول تاريخ فتوح افريقية وجعل بطل هذا القسم عقبة بن نافع وكان ورود شخصية طارق في هذا القسم عابرا ، ثم قدم في القسم الثاني فتح الاندلس وجعل بطل هذا القسم ظهور متميز فيه مع أن المؤلف سمى الرواية باسمه .

تقع المقدمة التي تناولت فتح افريقية في عشرة فصول مجموع صفحاتها ١٣٢ صفحة ، وأما القسم الثاني الذي تناول فتح الاندلس فيقع في أربعة فصول مجموع صفحاتها ٩١ صفحة فرواية طارق بن زياد أقصر روايات معروف الارناؤوط طولا وقد طغى فيها التاريخ على القسم الاول في حين برز الفن الروائي بصورة أظهر في القسم الثاني .

وقد خالف الكاتب طريقته التي اعتمدها في سيد قريش وعمر بن الخطاب من حيث اقحام فصول تاريخية في صلب نسيج الرواية الا ماجاء في الفصلين الاول والثاني عنها ، ويبدو أنه كان يستفيد من ملاحظات النقاد الذين عابوا على رواياته عجزها عن ربط التاريخ بالبنية الروائية ، إذ يظهر من النسخة المودعة في الظاهرية لهذا الجزء من الرواية أن مجمع اللغة العربية بدمشق الذي كان الارناؤوط احد أعضائه كان يطلع على نتاجه ويبدي ملاحظاته عليه ، فقد علق أحد المراجعين على النسخة المودعة ورفعها الى الاستاذ محمد كرد علي رئيس المجمع. وقدم عدة حواش ومقترحات بحذف بعض المقاطع .

ولا شك في أن بناء الرواية على شخصيتين تاريخيتين هما عقبة بن نافع ومغيث الرومي ، وفي بيئتين لا يجمع بينهما الا الاطار التاريخي قد أضعف حبكتها ، إذ لم تظهر شخصية مغيث بطلها الا بعد الفصل العاشر ولم تلتحم الحوادث التاريخية بسيرة البطل الشخصية من أول الرواية ،فضعف الترابط بين القسمين ٠

وبدا الجزء الاول منها أقرب الى التاريخ وان كان المؤلف قد منحه نفسا روائيا واستغل فيه الحوادث الاسطورية والملحمية كأسطورة حصن سبته ، ونبوئات الساحرة البربرية (دامية) ابنة زعيم البربر ٠

في القسم الاول من الرواية استعرض المؤلف انهيار الامبرطورية البيزنطية الشرقية على يد البرابرة ، وفتح مصر على يد عمرو بن العاص ثم فتح افريقية عام ٦٤٧م فالمغرب من قبل معاوية بن جريج زمن الخليفة معاوية ، وتولى عقبة بن نافع امارة افريقية ٠

اما الحبكة الروائية في هذا القسم فتدور حول شخصية عقبة بن نافع وقدوم الساحرة (دامية) البربرية لزيارته وهي ابنة امير قبائل جرورة البربرية التي قتل كسيلا والدها واستأثر بزعامة البربر وكانت دامية تجيد السحر وتتنبأ بالغيب ، وقد جاءت الى عقبة تستغيث به ان ينقذ قومها البربر من حكم كسيلا وتسلطه ، وكان والد دامية قد لاقى مصرعه على يد كسيلا الذي اعتصم بالجبال وراح يشن غاراته على كل من عصاه ، كانت دامية بارعة الجمال غير ان جمالها لم يؤثر كثيرا في عقبة الذي نذر نفسه لنشر رسالة الاسلام والعروبة وكان والد دامية قد أنبأها قبل وفاته أن في الاندلس حصنا مغلقا لا يفتح ، فيه تابوت مغشى باللؤلؤ ، وفي داخل التابوت صور فرسان بأصباغ محكمة التصوير على أشكال العرب وعليهم الفراء ،وهم معممون على ذوائب جعد ، ومن تحتهم الخيل الغريبة وهم متقلدون بالسيف المحلاة ، وقد جاء في الرق الذي فيه الصور انه متى فتح هذا التابوت دخل القوم الذين صورهم فيه الى الاندلس ، وذهب ملك من فيها الى أيديهم ، وقد وردت هده القصة في كتاب نفح الطيب واستغلها الارناؤوط ليمنح الوقائع نفسا ملحميا شعبيا ، كما جاء في نفح الطيب ان روذريك لما ولي امر الاندلس فتح التابوت وعرف حقيقة مافيه فزادت هواجسه وشدد الحراسة على الحصن ، ثم انصرف الى مباذله ، وتعلق بابنة رجل نبيل اسمه الكونت يوليان من كبار اعيان الأندلس ، وكان ابوها قد ارسلها الى بلاد رودريك لتمارس حياة البلاط فمالت نفس روردريك اليها وشغلته عن كل شيء دون ان يميل قلبها اليه ٠

وتتابع دامية القصة ، فان والدها لما سمع حكاية الحصن سأل كاهنه بربربرة فقالت له : قضي الامر يا سيدي ، وسينزل العرب على شواطىء اسبانيا فلا يخرجون منها ،وكان والد دامية يخشى على ملكه من العرب بالذات إلا ان مصرعه جاء على يد كسيلا ، ولم يبق أمام دامية الا أن تثأر له من قاتله ، ولن يقدر أحد على كسيلا الا عقبة بن نافع ٠

استمع عقبة الى قصة دامية فطمأنها الى أنه سيقضي على كسيلا عدو أبيها ، فتفرح دامية لوعد عقبة ، ثم يرد البريد من دمشق وفيه رسالة تخبر عقبه بموت امه ، فيحزن لأنه كان يحبها كثيرا ٠

وظلت قصة التابوت تؤرق عقبة وتحثه على ركوب البحر وبلوغ ذلك الحصن في سبته ، فندب عشرة من رجاله بينهم طارق بن زياد وطريف ومغيث الرومي ليجتازوا المضيق الى جبل طارق ، وكان طارق على حد تعبير الارناؤوط (أشبه ما يكون بغسق الليلة سوادا ، وعيناه حمراوان كالضرام وكان بوجهه قروح وجروح ، وكان الناس يتحامونه ويجفونه ، ولا يطيقونه

صامتا ولا يحيونه متكلما ، أما طريف فكان اشقر البشرة عميق الايمان فأقلهم الزورق الى الحصن ، وكان حارسه بربريا من صنهاجة فاستطاع طارق وهو بربري الاصل ان يقنعه بفتح الباب ، ففتحه لهم وتسللوا الى حجرة يوليان صاحبه ، فأيقظوه من نومه وهو يرتعش ، وأخبروه أنهما لن يؤذياه لكن سيعودان إليه مع جيوش الفتح ، وغادروا الحصن بعد ان بعثا في سبته الروح والفزع ، وهاجم كسيلا في تلك الاثناء مضارب دامية فأحرقها ونهبها وقتل رجالها فعادت الى عقبة ثانية تستنجد به للثأر ، فلم تجده في القصر ولكنها وجدت قائدا من قادة جنده هو مغيث الرومي فكلم الساحرة وسألته عن نسبه فأعلمها أنه عربي من أم بيزنطية ، ثم دلها على مكان عقبة قرب البحر ·

ونهدت دامية الى سرادق الامير عقبة قرب البحر فقصت عليه ما ارتكبه كسيلا من جرائم بحق أهلها وقومها ، غير أن حديثها لم يتم لأن جنود عقبة استطاعوا بعد معارك دامية مع كسيلا في الجبال ان يلقوا القبض عليه فلم يجد عقبة بدا من سجنه ، وكان قد عفا عنه من قبل حين قبض عليه مرة ، الا اكسيلا نقض العهد وثار على عقبة ثانية ·

فرحت دامية لمشهد كسيلا ذليلا يرسف في قيوده امام عقبة ، لكنها كانت تخشى ان يعفو الامير عن قاتل ابيها وهو الذي فطر على السماحة والحلم فلم تشأ أن تطلب منه الانتقام وشكرته لمساعدتها في تأديب قاتل أبيها ·

وصعد عقبة قمة الجبل الكبير حيث مدينة طنجة وأشرف على بلاد الاندلس ثم عاد الى طلل فلافيوش وقد قرر أن يرمي بالسفن والزوارق الى البحر لفتح الاندلس بعد ان دانت له افريقية · فتوجه الى معسكره في القيروان واصطحب معه كسيلا ، ورغب عقبة ان يستفيد من خبرة كسيلا فلاطفه في الطريق وعرض عليه ان يرافقه لفتح الاندلس ، فاستغل الزعيم البربري هذه الفرصة ليغدر ثانية ، واستسمح عنبة ليحشد قواته لكنه نكث العهد واعتصم بالجبال وأعلن العصيان ثانية ·

لم تكن المعركة مع كسيلا سهلة اذ كان على عقبة الامير العربي ان يتجنب الأودية ويسلك المغاور لئلا يقع جيشه تحت رحمة رجال كسيلا المعتصمون بالقنن ، وكان البرد قارسا لا يرحم ، فلما بلغ الليل موهنه واستقر رجال عقبة في الوادي هاجمته قوات كسيلا منحدرة كالجراد وكانت ملحمة دامية ، كان فيها كسيلا يبحث عن عقبة بين الرجال دون جدوى فلم يظفر به أو ينتصر على قواته فعاد الى الجبال يعتصم بها ، غير ان عقبة أصر على مطاردته في الشعاب العالية الوعرة ، ونجح في احتلال أول قرية من قرى الاطلس ، فاستقبله أهلها بالترحاب وهم يرجون انقاذهم من كسيلا الطاغية ، وفي اليوم التالي التحم الجيشان في معركة دامية سقط فيها من قادة عقبة عشرة رجال ، ونقل كسيلا دائرة المعركة الى الجبال وحاول اصحاب عقبة ان يتسلقوا الروابي فكانت سهام العدو المتحصن تصطادهم ، ويفتك بهم برد الاطلسي ، وقلة المؤن فلجأ الى فلج بالجبل عسى ان يباغت فيه كسيلا لكن البربري الماكر كان قد وضع له كمينا في الفلج فلم ينج ممن دخل من رجال عقبة احد وتدافع اليأس في نفسه ،ثم انحدر رجال كسيلا من القنن واحاطوا بفلول الجيش المتفرقة فكانت معركة دامية صرع فيها عقبة بن نافع ،فانتهت حياته بعيدا عن مغاني وطنه دمشق ·

وفي القسم الثاني من الرواية ينتقل الكاتب الى بلاد الاندلس وقد ختم حياة عقبة بطل القسم الاول ختاما مأساويا ، فينقلنا الى قصر خال كلارا المتشرف على طليطلة حيث تعيش فلورندا ابنة جوليان مع عمها أسقف اشبيلية ، وكان أبوها قد ارسلها الى الاندلس

لتمارس حياة البلاط عند خالها الملك هيتزا ،لكنها لم تسلم من أذى رودريك ، فنقلها أبوها الى قصر خال فلارا حيث عمها الاسقف مع حاشية صغيرة تتألف من مربية وعبد ، وخولي ماهر جيء به من طنجة وقيل انه بيزنطي الأصل عاش بين العرب في افريقية وخالطهم وقبس لغتهم ومهر في الزراعة ، لم يكن ذلك الخولي الا مغيثا الرومي قائد عقبة الذي تسلل الى الاندلس بصفة خولي ليمهد للعرب فتح الاندلس ويوافي عقبة بالمعلومات وتنشأ علاقة حب بين فلورندا ومغيث فقد أعجبت الفتاة بثقافة "مغيث" الذي كان يحسن اليونانية والعربية ، ثم تسأله عن حقيقة أصله ، فيصارحها انه ينحدر من سلالة ملوك ، فأبوه هو الحارث بن جبلة بني الايهم الذي عاش في القسطنطينية بعد ارتداد جبلة عن الاسلام ، وقد زوجه هرقليوس قيصر الروم ابنته ليظل في القسطنطينية لكنه كان يؤثر العودة الى موطن أجداده بلاد العرب ، فرفضت زوجه فيلبس ان تصحبه ، وكان أبوها شديد التعلق بها ، وكان الحارث يراسل معاوية سرا ليعود الى ديار الغساسنة في الشام فرضي معاوية أن يمنحه عشرين قرية من قرى الغساسنة في الغوطة وأطراف دمشق ، فلما منعه قيصر من اللحاق بقومه وحجر عليه وأسكن ابنته معه في قصره بعد أن فصلها عن زوجها عاش الحارث حزينا حتى وافته المنية ولحقت به زوجته بعد قليل ، واستطاع ثعلبة أحد اعوان الحارث ان يفر بالصبي ابنهما وهو " مغيث " الذي لم يبق سواه من الاسرة الى بلاد العرب فأنزله ديار الغساسنة في الغوطة ، وكان جده قيصر قد حشد له المؤدبين فحذق اليونانية والرومية وبرع في العلم والزراعة ولم يشأ مغيث ان يعلن عن حقيقة نسبه في بلاد العرب فعرف باسم مغيث الرومي ، فلما شب في ديار أهله أعلن اسلامه والتحق بالجيوش الفاتحة حتى أصبح أحد قادة عقبة بن نافع البارزين .

ولم يشأ مغيث ان يطلع فلورندا على سره ومهمته التي كلفها ،فظلت تعتقد انه بستاني متحدر من سلالة النبلاء وكان يقودها الى نزهات في البحر ، يحميها زورق تحت ضوء القمر فيقضيان الليل ، فيتناجيان ويتبادلان القبل وأحاديث الغرام .

وكان مغيث يرصد ما حوله ويأتي قومه العرب بأخبار العدو وقواته ، ينقلها رسل متخفون يفدون الى حديقة القصر ، الى أن جاء يوم قرر فيه العودة الى افريقية تمهيدا للفتح ، كان فيها والي افريقية الجديد موسى بن نصير الذي خلف عقبة بن نافع يجهز السفن ليوجهها بقيادة طارق بن زياد الى المضيق الذي عرف باسمه ، ويصارح مغيث فلوريندا بعزمه على الرحيل فتحزن أيما حزن لكنه يؤكد لها انه سيعود فيودعها وهو يشعر أن الحب القوي العنيف الذي لقيه في ارض الاندلس لم يستطع ان يضعف طموحه وهو الجندي الشجاع الذي جمع فضائل الفروسية والالمعية ، ويسافر وفي قلبه صوت الوطن الذي نما وترعرع فيه على ضفاف دمشق وفي عينيه صورة الدنيا الجديدة التي سيحملها الى قومه ، ليبنوا على شطآنها وفي جبالها وسهولها المدن بالمرمر والرخام والجنات التي يعيش فيها المجد الى جانب الوجد .

وينتهي الجزء الاول من الرواية عند هذا الحد ولو تابع الارناؤوط رواية الجزء الثاني لنجح في تقديم صورة رائعة لفتح الاندلس يمتزج فيها الحب بالواجب ، وتحظى فلورندا بحبيبها فيكون لقاء ما بعده فراق .

في القسم الثاني من الجزء الاول يبدع (معروف) في تصوير علاقة مغيث بفلورندا وهو الاديب البارع الموفق أيما توفيق في تصوير مواقف الحب وتحليلها بحكم نزعته الرومانسية وقدرته الفائقة على تمثل مواقف الحب وتحليل

مشاعره ، مع براعة في وصف الطبيعة والعمران كوصفه لقصر خال كلارا اذ يقول :

في قصر خال كلارا المنيف وفي حجرة من حجراته تعيش فلورندا الحسناء ، عيشة الزهرة في اناء من الخزف لا عيشة هذه الازهار التي يندیها الطل في جنات تضيئها الشمس وتدغدغها السحب " الى ان يقف عند وصف القصر فيقول :

" يطل قصر كلارا على وادي التاج، ويجثم على شيع من الصخر قاتم اللون ، شديد الجهمة ، لا تلين ربوده لقاصد ولا تضحك حدوده لرائد ، ثم يبين موليا ظهره شطر طليطلة كأنما هو ينظر اليها من ناحية الغرب ، حيث يفيض الوادي ويتدفق بين شوامخ طليطلة وبواذخ (تلابريغة) فلو أن سائحا امتدت به أسفاره الى هذا الطلل الجاهم الباسر ، ونزل عرصاته وسوحه وطاف أروقته وممراته ، كما استطاع ان يجنب نفسه الروع وذلك لأن في كل ناحية من نواحي هذا الطلل قصة حياة شجية لأي راهب من الرهبان الذين عمروه وأثلوه ، وجعلوا من غرفه ومقاصيره ومنحنياته مواضع لذة ومراتع صبوة وأراقوا على حصبائه الرحيق المائع ممزوجا بالدم الهامع .. فإذا علوت شرقا من الارض في مساء رخي الظل لم تفتك المخاضر البارعة ، ترتادها قوافل المسافرين وعصائب السائحين ، فإذا أطلت وقفتك بذروته أبصرت الفلاحين والقرويين يتساقطون على السهل من الجبال تساقط الماء وقد تسايلوا من طريق - افيلا - وعلى أبدانهم غلائل من الصوف ، تضرب الى السمرة واختلط بهم أناس يلبسون أردية قصيرة من جلد الماعز .."

وفي هذا الوصف الى جانب روعة اللغة دقة وتفصيل لا يتأتيان الا لمن درس جغرافية المنطقة وعاداتها وتقاليدها وحياة سكانها او لمن زارها فوصفها بعين خبيرة وبروح واقعية لا تفتقر ايضا الى الخيال ، حتى ليذكرنا وصفه ودقته بفلوبير في قصته مدام بوفاري ، وكان معروف الارناؤوط من المطلعين جيدا على الادب الفرنسي .

ومعروف في كل قصصه مولع بتاريخ الغساسنة يختار منه شخصياته او عالمه القصصي ويربط الاحداث التاريخية بحبكة رومانسية ، وأغلب شخصياته مأساوية ، فالبطل كمغيث الرومي ينحدر غالبا من سلالة نبيلة وقد حط به الدهر وعادته الايام ، وكثيرا ما يختار أبطاله من اليتامى او من الذين فقدوا الاب فتكفلت الام رعاية الطفل حتى شب عن الطوق ، وللأم عند " معروف " مكانة بارزة في كل رواياته فهي في سيد قريش آمنة البارة بولدها وهي في عمر بن الخطاب زوج مثالي او ام كرستيا وهي في (فاطمة البتول) فاطمة ام الحسن نفسها ، وأبطاله مأساويون متألمون يدفعهم قدرهم الى الثار والانتقام منهم ليسوا من نماذج الطفل اللقيط الذي يهربه من العالم وينسلخ عنه ، فهم فاعلون يصنعون التاريخ ويعوضون عن عقدة الاب ببناء عالم يقيمونه بإرادتهم ، ولم يكن مغيث الرومي الا صورة عن كريستيا الشاعر وامرؤ القيس والحسين بن علي وفروة بن عمرو ، كلهم فقدوا الاب قتيلا وكلهم يثأرون من مجتمعاتهم الظالمة ، وهم يتمتعون بقدر من النبل والاباء والشجاعة ويعيشون حلم الثار والقصاص ، فهل ترتد روايات (معروف) الى عقدة الاب التي تحدثت عنها (ماريوت) مستندة الى نظرية فرويد ؟ وهل كانت حياة الكاتب نفسه ثمرة حلم طفلي فأراد من خلال الكتابة أن ينال اعتراف المجتمع فخلق عالما عوض فيه عن فقد أبيه الذي مات وهو طفل وتولت أمه تربيته كذلك . ان رقة الكاتب واحساسه المرهف يعودان الى حد كبير الى المرأة التي رعته يتيما مع طبع عاطفي مفرط الانفعالية الى حد بعيد ، وخيال جامح يحاول ان يعيد بناء الحياة كما يريد ، والاب في روايات الارناؤوط كلها يخضع للعقوبة ، فيقتل او يشرد

او يموت منهيا العلاقة الاسرية لتتولى الام مكانه في تنشئة الاولاد الذين يصبحون أبطالا يحققون المعجزات وينتصرون على الظلم .

واعتماد (معروف) على الاساطير الشعبية والمرويات السحرية ملفت للنظر حتى ليتحول التاريخ عنده الى ملحمة شعبية فيها الكثير من الخرافة ، فكأنه يروي التاريخ مثلما تروي النساء والعجائز حكاياتهن التي تمتزج فيها الحقائق بالخرافات وقد أشار في مقدمة روايته عمر بن الخطاب الى أثر أمه في تكوين ميوله للقصص والروايات ، أما المرأة فهي أبدا عنده عنصر محرض فعال ، وان كانت تظهر أحيانا غير نقية أو لاهم لها الا العبث واللهو مثل شخصية بنت نتالي في عمر بن الخطاب ، وهو يتوخى الكمال الادبي في أسلوبه الذي يحفل بالبيان وتثقله التزيينات البديعية والبيانية ويحرص على تنقيته من كل شائبة على غرار الكاتب الفرنسي (فلوبير) وهو الاسلوب المثالي الذي كان سائدا في عصره ، فالصياغة لا تستهدف التعبير عن الواقع قدر ما تهدف الى التأثير بالقارىء ونقل الاحاسيس ، أما التاريخ عنده فعظة وعبرة وهو فوق ذلك كله ثقافة وحضارة ونمط حياة ، ولذلك بدا اهتمامه كبيرا في الجوانب الحضارية التي نقلها العرب الى الاندلس ومنها زراعة الفاكهة ولا سيما البرتقال والتفاح والليمون والخوخ والمشمس يقول : (ثم لا يلبث هؤلاء القوم (أي أهل الاندلس) ان يحسوا بالغيرة من اولئك الاساتذة الذين جاؤوا من بلاد الشام الى افريقية ليعلموا ابناءها اصول الرمي ، وأساليب الزرع ، فلما برعوا في التدريس والتعليم وطارت شهرتهم الى شواطىء الاندلس وتسامع سكانها وأسيادها بجنات افريقية وحدائقها فصبغت نفوسهم الى مجاراتهم ومحاكاتهم وسألوهم في صداقة وحب أن يهبوا هذه الارض الاندلسية بعض ألميعتهم ، فإذا هذه الارض التي لبثت على عريها خلال عصور خالية بالثمر اليانع والزهر الماتع ، وإذا أشجار البرتقال والتفاح والليمون والسفرجل والخوخ والمشمش تخلع ظلالها على اليفوع والحدور والجبال والتلال واذا الطبيعة تضحك على ضفاف البحيرات والينابيع والجداول ..)

وقد بدا الكاتب أكثر التزاما بالحقائق التاريخية في القسم الاول منه الجزء الاول ، فلم يضف الى التاريخ او يحور فيه ، حتى الاساطير والقصص التي بنى عليها روايته وردت في الوثائق كقصة الحصن ، وقصة الكاهنة البربرية وان كان الكاتب قد حور قليلا في الاسماء ، او بنى حول المعلومات صورا من الخيال ، فقد جعل (دامية) أقرب الى الكاهنة البربرية التي حاربت العرب لكنها في الرواية تبدو طالبة ثأرها من كسيلا ، أما القسم الثاني الذي تحدث فيه عن فلوريندا فقد حرف قليلا الوقائع اذ جعل فلوريندا تستعصي على رورديك ، مع ان كتب التاريخ تذكر انه اغتصبها منه ، وكانت قصة حبها لمغيث الرومي من بنات خياله غير ان هذه التعديلات لم تسيء كثيرا الى جوهر الحقائق التاريخية ولا أخرجتها عن المنطق ، كما شاركت الشخصيات التي اختارها في صنع الاحداث والتأثير بمجراها بحدود ما يمكن ان يتصوره القارىء فهي مقبولة من الناحيتين الفنية والتاريخية ولا سيما شخصية عقبة بن نافع ومغيث الرومي ، وان كانت بعض الوقائع التي ذكرها بدت احيانا مخالفة للواقع كدخول طارق ومغيث الحصن دون ان يتبين الهدف من هذه المغامرة لأنهما لم يفتحا التابوت ولم يتبينا ما حفظ فيه ، ولم يكن لهذه المغامرة أثر في الاحداث اللاحقة مما جعلها مقحمة في النص .

هذه لمحة عن رواية طارق بن زياد فيها عالم من السحر الادبي والجمال ودنيا من المشاعر المتنوعة التي يمتزج بها حب المرأة بحب الوطن

ويتحد فيها الشعور الديني بالاعتزاز القومي ، فهي مدرسة للاجيال يتعلمون على يد كاتبها دروسا في العزة والكرامة ،ويعتقدون بسير الاجداد لمقاومة المستعمر الغربي الذي كان يربض بشبحه البغيض فوق الارض العربية ، فجهد معروف الارناؤوط ان يبعث في النفوس المستكينة مشاعر الثورة ، والتمرد ٠٠ والادب ، هو خير سلاح للتوجيه وأفضل وسيلة لنشر الوعي فكان للكاتب ما أراد اذ جلا المستعمرون عن ارضنا العربية بعد صدور الرواية بسنوات ، وكان لمعروف شرف الاسهام مع الشعراء والكتاب الاخرين في تعبئة الرأي العام للمقاومة وحفزهم الى النضال ٠

عبد اللطيف الارناؤوط

ش شعر



سعاد الصباح

قصائد حب

وتحية إلى الاديبة وداد قباني

دولة العباس

ايتها القديسة في محراب الزمن القاسي .. الزمن الصعب المتوشح بالآهات ..

أيتها الأنثى .. يا فاغمة الحرف .. العطر ..

تنسابين حضورا كالأنسام الصيفية ..

يا سوسنة الفكر المزروعة في عمق الوجدان ..

يا ليلكة الغابات البرية ..

سنديانة التحدي أنت .. في كهوف الخوف البشرية ..

الحرف يناديك ، فانبثقي في حرفك حورية ..

والوجد يناديك فابتهلي .. لا تغلقي باب القلب ..

فالوجد نقاء للإنسان .. ، وباب يفتح للإيمان .. وقلبك يخفق .. يا خائفة من أغلال الوجد القاسية .. ومن نار القضبان .. يا عاشقة للحرية ..

يا فارشة درب الصدق أزاهيرا من وهج الشمس الدافئة .. العطرية ..

باسم الصدق .. وباسم العطر .. وباسم الشعر أناديك ..

وأصلي من أجلك ألف صلاة في محراب العيد .. على أبواب العام الآتي ..

وارش بخوري في نيران إرادتك الصلبة ..

يا صخرة كبر من بلدي .. ترتاح بقربك يا بردى .. !!

يا رمز كفاح المرأة .. والمثل العليا في زمن الجدب ..

أدعوك .. اليوم لسهرتنا .. في ليلة وجد صوفية ..

كي نشرب كأس الحرف الواله بالأنداء النثرية .. والشعرية ..

في ليلة رأس السنة الميلادية ..

وكل عام وأنت بخير ..